سُورَةُ المَائِدَةِ

النزول: مدنية.

فضل السورة:

من السبع الطوال، تَقَدَّم ذِكْره في مطلع سورة النساء.

المقاصد:

١ ـ بيان موقف أهل الكتاب من دعوة الإسلام.

٢ ـ تقرير عدالة الإسلام ورحمته للإنسانية.

٣ ـ بيان كثير من أحكام الأطعمة والأشربة.

٤ ـ حِماية المجتمعات من الجريمة، وتوجيهها إلى الفضائل.

٥ ـ التَّحذير من مُوالاة اليهود والنَّصارى.

٦ ـ حرص الشريعة على تيسير الأحكام على الناس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾﴾

التفسير:

١ ـ جاء النداء الأول في هذه السورة بدعوة المؤمنين إلى الوفاء بالعقود. والعقود تشمل كلَّ ما عقده الله على عباده، وألزمهم به من الأحكام، وما بين العباد من عقودٍ، كعقود الأمانات، والمبايعات، وسائر أنواع العقود المشروعة. ومن رحمة الله وتيسيره بالعباد وعنايته بهم أن أحلَّ لهم ما فيه خيرٌ ومنفعةٌ، من ذلك الإبل والبقر والمعز والضأن، وما يشبهها من سائر الحيوانات التي ترعى، فهي حلال إلا ما استثناه الله تعالى، كما حَرَّم الله الصيد على المحرم بالحج أو العمرة أو بهما، ولو في غير الحَرَم. وختامُ الآية تقريرٌ لهذا الحكم، فهو تعالى خالقُ كل شيءٍ ومليكه، لا مُعَقِّب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه.

٢ ـ نداء من الله لعباده المؤمنين ينهاهم عن استحلال نُسُكِه وفرائضِه، والتقصيرِ فيها، أو التهاون في أدائها، كما نهى عن انتهاك حرمة الأشهر الحرم، وهي: رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرم، فلا يقاتَلُ فيها إلا مَنِ

اعتدى. ولا يجوز التعرُّض للهَدْي الذي يسوقُه الحُجَّاجُ والعُمَّارُ، ولا لقلائد الهدي فهي أعظم حرمة لأنَّها مقلَّدةٌ تعظيماً لله، ولا يجوز التصدي لِـمَنْ قصد البيت الحرام بمنعه من أداء النسك بعد أن شرع فيها، كيف يُمنع وهو يرجو الفضل العظيم والرضوان الكبير من خالقه، ومُدَبِّرِ شؤونه؟ ولا يَحْمِلَنَّكم بُغْضُ قوم على الاعتداء عليهم، أو ظلمهم، وهضم حقوقهم، فتلك جريمةٌ شنيعةٌ. ولما نهى عنه أمر بالتعاون على البرِّ والتقوى، والبرُّ جماعُ الخير، والتقوى هي الخوف من الله تعالى، واجتناب محارمه، وامتثال أوامره، كما نهى الله تعالى عن التعاون على الإثم والاعتداء، فليس هذا من أخلاق أهل الإيمان، ثم أمر عباده بالتقوى، وتَوَعَّدَ مَنْ خالف بالعقاب الشديد.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ اشتملت هذه السورة على ستة عشر نداءً إيمانيّاً، كلُّ نداءٍ يحملُ للمؤمنين توجيهاً وإرشاداً فيه صَلاحُهم وفَلاحُهم في الدارَين.

٢ ـ وجوب الوفاء بالعقود التي أوجبها الله تعالى وشرعها، وتشمل حقوق الله تعالى، وحقوق العباد.

٣ ـ فَضْلُ الله وتيسيره على عباده؛ إذ وَسَّعَ لهم نطاقَ المباح، وضَيَّقَ دائرة المحرمات، فهي مقصورة على ما فيه ضررٌ للنفس، أو إضرارٌ بالآخرين.

٤ ـ حكى بعض المفسرين: أن أصحاب الفيلسوف الكندي قالوا له: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال: نعم أعملُ مثل بعضه، فاحتجب أياماً كثيرة، ثم خرج فقال: واللهِ ما أقدر، ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجَتْ سورة المائدة، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء، ونهى عن النكث، وحَلَّل تحليلاً عاماً، ثم استثنى بعد استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا يقدر أَحَد أن يأتي بهذا. (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/ ٣١).

٥ ـ تعظيم حُرُماتِ اللهِ تعالى وشعائِرِه فيه خيرٌ عظيمٌ، وبرهانٌ جَلِيٌّ على صدق التقوى.

٦ ـ وجوب التعاون على البر والتقوى، وحرمة التواطؤ على الإثم والعدوان.

٧ ـ شرائع الإسلام تهدف إلى تأليف القلوب، وتوحيد الجهود، وتحقيق الخير للإنسانية. وتلك رسالة الإسلام، رسالة الخير والرحمة للإنسانية والنهوض بها.

٨ ـ تكرار الأمر بتقوى الله تعالى؛ لترسيخها في القلوب، فينبغي أن يكون المؤمنُ تقيّاً وعوناً لغيره على تقوى الله، وينبغي التواصي بذلك؛ فالتقوى وصية الله للأوَّلين والآخرين.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ
وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟
بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ
لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ
مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا
عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ
لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ
ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ
حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

التفسير:

٣ ـ حَرَّمَ الله الميتة، التي ماتت دون تَذْكِيَةٍ، والدمَ المسفوح، وكانوا يطبخونه في الجاهلية، أو يسفحونه من الأنعام وهي حية، فيحتسونه أو يطبخونه، وحَرَّم لحم الخنزير، وما ذُبح لغير الله تعالى، كمن يذبح للصنم أو للنار أو للجن، أو لغير ذلك من الطواغيت، وسائرِ ما يُعْبَدُ من دون الله،

وكذلك المنخنقةُ سواءً خَنَقَتْ نفسَها أو خَنَقَها غيرُها، والموقوذةُ وهي التي ضُربت بعصا أو بحديدة أو خشبة ونحوها حتى ماتت، والمتردِّية التي تَرَدَّتْ من شاهقٍ، أو تَرَدَّتْ في بئر ونحوِه، والنطيحةُ التي نُطِحَتْ حتى فارقت الحياة دون ذكاةٍ، وأكيلةُ السبع إلا ما أُدرِك وذُكِّيَ، وكذلك ما ذُبِح على النُّصُب، وهي الحجارة التي كانوا يضعونها حول الأصنام، وما يترتب على الاستقسام بالأزلام ـ وهي القِداحُ التي كانوا يستخدمونها في الجاهلية لمعرفة ما قُسِمَ لهم من الخير والشر ـ وهو ضَرْبٌ من الكِهانة، ورَجْمٌ بالغيب.

وكلُّ ذلك من الخروج عن شرع الله ودينه، وقد يئس أعداءُ الإسلام من إطفاء نوره، بعد أن أظهره الله تعالى، فلا تخشوهم، فالخشية لله جلَّ وعلا، وقد أكمل لنا الدينَ، وأتمَّ علينا النعمة، ورَضِيَ لنا الإسلام، اختاره لنا واختارنا له. وهذا من رحمته تعالى بنا وتَفَضُّلِه علينا، فعلينا أن نرتضيه شرعةً ومنهاجاً، وسلوكاً وآداباً. فمَنِ اضْطُرَّ لشيء من هذه المحرمات لجوعٍ شديدٍ فله أن يأكل منها بقَدْرِ ما يَسُدُّ الرمق، دون أن يميل قلبُه إليها، فيستمرئ الإثم، ويستعذب الحرام، فما هي إلا الضرورةُ المُلِحَّة، والله تعالى يغفر له ما أسلف. وهذا من رحمته تعالى: عن طارقِ بنِ شهابٍ قال: قال رجلٌ من اليهودِ لعمرَ بنِ الخطاب: يا أميرَ المؤمنين، إنكم تقرؤون آية في كتابِكم، لو علينا معشرَ اليهودِ نزلت هذه الآية، لاتَّخذنا ذلك اليومَ عيداً، فقال عمر: واللهِ إني لَأعلمُ أيَّ يوم نزلت هذه الآيةُ على رسولِ الله، والساعةَ التي نزلَتْ فيها، وأينَ أُنزِلَتْ؟ وأينَ رسولُ الله حين أنزلتْ؟ نَزَلَتْ عشيةَ يوم عرفةَ، وفي يومِ الجمعةِ، وإنَّا واللهِ بعرفةَ، ورسولُ الله واقفٌ بعرفة، وكلاهُما بحمدِ الله لنا عيدٌ. (صحيح البخاري، كتاب المغازي باب حجة الوداع، برقم ٤١٤٥، وصحيح مسلم، التفسير ٤/ ٢٣١٢، ٤/ ٣٠١٧).

٤ ـ بعد بيان ما حَرَّم عليهم من الذَّبائح بَيَّنَ تعالى ما أحلَّ لهم، فكل ما طاب أكلُه وناسب طبيعة الإنسان فهو حلالٌ طيِّبٌ؛ ولذا شرع الإسلام التذكية، وحرَّم كلَّ مستخبثٍ، وحرَّم الميتةَ، وكلَّ ما لم تُدْرَكْ ذكاتُه وهو حيٌّ، وأحلَّ الله تعالى ما صادته الكلاب والطيور وغيرها من الجوارح التي يصيدون بها بمهارة وحِذْقٍ، وهو من العلوم النافعة التي امتَنَّ الله بها عليكم.

فاذكروا اسم الله على الصيد عند إدراكه، واتقوا الله في سائر أموركم، فإنَّ حسابه آتٍ، وهو الذي يَفْصِلُ بين عباده في زمن يسير. وفي هذا تحذيرٌ لِـمَنْ انتهك الحدود.

٥ ـ أحلَّ الله طعام أهل الكتابِ، كما صرَّح بحِلِّ طعامنا لهم، وأحلَّ الله نكاحَ المحصنات، أي: العفائف من المؤمنات، كما أحَلَّ المحصناتِ من الكتابيَّاتِ يهوديةً كانت أو نصرانيةً، وقدَّم المؤمنةَ لأنَّها أولى وأجدرُ، وبَيَّنَ تعالى حَقَّ الكتابية في المهر، وحَذَّرَ من الكفر بأصول الإيمان أو شرائعه؛ لما قد يترتب على مخالطة أهل الكتاب من ميلٍ قلبي يُفضي إلى انتكاسة، أو تضييعٍ للدين؛ وذلك لبيان أن الزواج بالكتابية لا يعني قبول ما هي عليه.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ أفاد قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ أنَّ على كل آخذٍ علماً ألَّا يأخذه إلا مِنْ أَقْتَلِ أهله علماً، وأنحرهم دراية، وأغوصهم على لطائفه وحقائقه، وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل. (انظر: الكشاف للزمخشري ١/ ٦٤١). والعالم له من الفضيلة ما ليس للجاهل، لأنَّ الكلب المُعَلَّم له فضيلة على سائر الكلاب، فالإنسان إذا كان له عِلْمٌ أولى. (انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/ ٧٤).

٢ ـ الأمر بتقوى الله في سياق بيان أحكام الصيد إشارةٌ إلى أنَّ الحياة كلَّها ـ جِدَّها ولهوَها ـ ينبغي أن تخضع لتقوى الله تعالى، وأنَّ المؤمن يراقبُ الله تعالى في سرِّه وعلنه، في خلواته وجَلَواته، وفي سائر المواطن وشتى الميادين، حتى البراري والقفار التي يصيد فيها ينبغي أن يعمرَها بتقوى الله.

٣ ـ في حِلِّ طعام أهل الكتاب ونسائهم تيسيرٌ على الأُمة، ورَفْعٌ للحرج، ودعوة للترابط بهذا الميثاق الغليظ، والتعايش بين المسلمين وأهل الكتاب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾

٦ ـ سبب النزول:

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قالت: سَقَطَتْ قِلَادَةٌ لِي بِالْبَيْدَاءِ وَنَحْنُ دَاخِلُونَ المدِينَةَ، فَأَنَاخَ النَّبِيُّ ﷺ وَنَزَلَ فَثَنَى رَأْسَهُ فِي حَجْرِي رَاقِداً، فأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَلَكَزَنِي لَكْزَةً شَدِيدَةً وَقَالَ: حَبَسْتِ النَّاسَ فِي قِلادَةٍ! فَبِي المَوْتُ لِمَكَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَدْ أَوْجَعَنِي، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَيْقَظَ، وَحَضَرَتِ الصُّبْحُ، فَالْتُمِسَ المَاءُ فَلَمْ يُوجَدْ، فَنَزَلَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الْآيَةَ، فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ رضي الله عنه: لَقَدْ بَارَكَ اللهُ لِلنَّاسِ فِيكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ، مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَرَكَةٌ لهمْ. (صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة المائدة برقم ٤٣٣٢).

التفسير:

نداء الرحمن لأهل الإيمان؛ لبيان مشروعية الوضوء إذا قاموا إلى صلاتهم، فالطهارةُ من الحدث شرطٌ من شروط صحة الصلاة، لا تَصِحُّ ولا تُقْبَلُ بدونها، فجميع الصلوات يُشترط لِمَنْ دخلها الطهارة، فأمر تعالى بغسل الوجه واليدين إلى المرفقين، وحدود الوجه من الأذن إلى الأذن عَرْضاً، ومن منبت الشعر إلى منتهى اللَّحْيين طولاً، والفرضُ فيه الغسلُ، والفرض في اليدين الغسل إلى المرافق، أي: معها، فهي داخلةٌ في الفرض، والمسح على الرأس كله، ويجوزُ مسحُ بعض الرأس، وقوله: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ عطفٌ على ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ فالفرض في الأرجل الغَسْلُ؛ لأنَّ العطف هنا يقتضي الاشتراك في الحكم، وأمر الله تعالى بالاغتسال من الجنابة التي تحصلُ بنزول المني أو الإيلاج، كما بَيَّنَ

تعالى الحكمة من الوضوء وهو التطهر، ورفع الحرج والتيسير على الأُمة، وإتمام النعمة، فيسَّر اللهُ تعالى لعبادِه وشَرَعَ لهم ما فيه طُهْرُهم وارتقاؤُهم وصلاحُهم، وفلاحُهم، فكان التطهُّر للصلاة لأنها معراجٌ إلى الملكِ القدوس، فواجبُ العبد أن يتهيَّأ لها بطهارة الروح والبدن؛ ليكون أهلاً للوقوف في ساحةِ القُدْسِ، ويظلَّ متأهِّباً لهَدْي الله ورسوله. وقد شرع اللهُ التيمم تيسيراً على عباده المؤمنين، ورفعاً للحرج عنهم، إذا فُقِدَ الماءُ، أو تَعَذَّرَ استعمالُه لقلَّته، أو لمرضٍ أو لبردٍ شديدٍ.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ الإسلام دينُ الطهر والنقاء، جمع بين طهارة الظاهر وطهارة الباطن.

٢ ـ رفعة القرآن الكريم وروعة أساليبه. تأمَّلْ كنايته عن قضاء الحاجة، كذلك التعبير عن الجماع بالملامسة، ففيه من السمو والرفعة ما فيه.

٣ ـ رحمة الله تعالى بعباده، وتيسيره عليهم، ورفع الحرج عنهم.

٥ ـ في الآية رَدٌّ على الموسوسين الذين يبالغون في استعمال الماء.

شعائر الإسلام تستوجب الشكر؛ لأنَّها تهدف إلى طهارة المسلم، وتمام الإنعام.

٦ ـ من سمات أسلوب القرآن الفصاحة في الألفاظ والعذوبة في الكلمات، تأمَّل التعبير بالمرافق، ولم يعبر بالمرفقين، كذا في التعبير بالكعبين، دون التعبير بالكعوب لسهولة كلمة (الكعبين).

٧ ـ عَطْفُ الأرجل على مسح الرأس؛ للتنبيه على وجوب الاقتصاد في غسل الأرجل؛ لأنَّ غَسْلَها مَظِنَّةُ الإسراف، فكأنَّها جمعت بين الغَسْل والمسح: الغَسْلُ من جهة تنظيفها فهي عرضةٌ للاتساخ، والمسح يعني الاقتصاد في استعمال الماء عند غسلها.

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ
بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ
أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

التفسير:

٧ ـ أمر الله عباده المؤمنين باستحضار نِعَمِه عليهم، ومن جملتها: الهداية والتوفيق والنصرة والتيسير والتمكين، وميثاقه العظيم على السمع والطاعة، فهو تعالى عليم بما يَسْتَكِنُّ في الصدور، وما يختلج في الضمائر من الأسرار والخواطر، مع عِلْمِه تعالى بظواهر الأمور.

٨ ـ ثم ينادي الله عباده المؤمنين أن يكونوا حريصين أبلغَ الحِرْصِ على القيام لله بالحق، متجرِّدين لذلك إخلاصاً لله وإرضاءً له، لا لأجل الناس أو لحاجة في النفس. وأمرهم بالقسط في الشهادة، فلا يجورون فيها، ودعاهم ألَّا يَحْمِلَهم بُغْضُ قوم على تَرْكِ العدل فيهم، بل العدل في الرضا والغضب هو ميزان الحق وطريقُ التقوى، ثم أكَّد الأمر بتقواه في سائر الشؤون مقرراً ذلك بعلمه تعالى، وإحاطته ببواطن الأمور.

٩ ـ ولما أمرهم بالتقوى وحَضَّهم على العدل بَيَّنَ تعالى جزاء المؤمنين، فقرن بين الإيمان والعمل الصالح؛ لما بينهما من تَلازُم، فالإيمان أساسُ العمل والعملُ ثمرةُ الإيمان، فمَنْ جَمَعَ بينهما نال المغفرة والأجر العظيم. وهذا وعدٌ ثابتٌ مؤكدٌ، وليس أعظم من رضوان الله وجَنَّتِه.

١٠ ـ أما عن مصير الكافرين المُكَذِّبين بآيات الله فإلى الجحيم، وَفْقَ قضاءٍ عادلٍ من الله تعالى، فهو العليم بأعمالهم، الحكيم في أقداره وحُكمِه.

١١ ـ وينادي الله عباده المؤمنين، فيُذَكِّرهم بما امتَنَّ عليهم من نعمة الأمن، وكَفِّ الأذى عنهم، وردِّ كيد عدوهم، فكم صرف عنهم من شرٍّ، وكم جَنَّبَهم من بلاءٍ! وكم سَلَّمهم من مكروه! وكم كَفَّ من أيادٍ بُسِطَتْ بالشرِّ والأذى! وكم لله مِنْ لُطْفٍ خَفِيٍّ بأوليائه، فليتقوا الله تعالى فهو كافيهم وحافظهم، وهو وحده الذي يُتَّقى، فمَنِ اعتصم بتقواه حَفِظَه ورعاه، ومَنْ توكَّل عليه كفاه، فعليه وحده يتوكل أهل الإيمان. فإذا اتقاه المؤمن وتَوَكَّلَ عليه، فلن تُرْهِبَه قوى الغدر، ولن تهزمه جحافل الطغيان. ولا يستقيم معنى التوكل إلا بالاجتهاد في الأخذ بالأسباب والارتقاء بها، وعلوِّ الهمة في ذلك؛ فإنَّ السير وَفْقَ سُنن الله تعالى هو السبيل لتحصيل المطلوب، والنجاة من المرهوب.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ استحضار النعم وشكرها، وتجديد العهد والبيعة مع الله على السمع والطاعة.

٢ ـ من سُنَنِ القرآن أن يتبع ذكر ثواب المؤمنين ببيان عقاب الكافرين؛ فبضدِّها تتبيَّن الأشياء، وليزداد أهلُ الإيمان حرصاً وثباتاً على الحق ومسارعةً إليه؛ ففي ذكر جزاء مَنْ عاداهم تثبيتٌ لهم وتسليةٌ.

٣ ـ العدلُ حقٌّ لجميع الناس مؤمِنهم وكافرِهم، وعدوِّهم وصديقِهم.

٤ ـ ذِكْرُ نِعَمِ الله على عباده المؤمنين، ودفاعه عنهم.

٥ ـ الترغيب في تقوى الله تعالى، والتوكل عليه وحده.

٦ ـ استحضار أسماء الله تعالى وصفاته العُلى ممَّا يزيد العبد تعظيماً ومحبةً ويقيناً.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ
إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ
وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا
نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ
وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ
وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ
فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ
وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

التفسير:

١٢ ـ يخبر الله جل وعلا مؤكداً هذا الحدث العظيم في تاريخ بني إسرائيل، إذ أخذ عليهم المواثيق، وجَعَلَ فيهم العُرَفاء، وهم المُوَكَّلُون بأمر أقوامهم وعشائرهم، الذين يُنَقِّبون في أحوالهم وشؤونهم، ورَغَّبهم اللهُ تعالى في الوفاء والامتثال، وبَشَّرهم بمَعِيَّته لهم، يحفظهم ويَكْلَؤُهم، ويؤيدهم وينصرهم، ووعدهم بالمغفرة والثواب، إن حافظوا على الصلاة، وأدَّوا الزكاة لأهلها، وصَدَّقوا وامتثلوا لرسل الله وآزروهم وعَظَّموهم، وبذلوا الأموال في وجوه الخير وميادين البرِّ، لَيُكَفِّرَنَّ عنهم سيئاتهم بغفرانها وسَتْرِها، ولَيُدْخِلنَّهم جناتٍ وارفةَ الظلال، يانعةَ الثمار، جاريةَ الأنهار. فمَنْ كفر بعد ذلك، بنقض الميثاق أو إنكار شيء منه، فقد ضَلَّ عن طريق الحق الواضح المستقيم.

١٣ ـ فبسبب نَقْضِهم الميثاقَ، وقلة اكتراثهم بالحقِّ، استوجبوا اللعن، واستحقوا الطرد والإبعاد عن رحمة الله، وعُوقبوا بالحرمان من نعمته، مع قساوة قلوبهم فلا تنزع إلى خير، ولا تَرِقُّ لذِكْر، ولا تلين لموعظة، ولا تتفتَّح لقبول آياته لتفيء إلى أمر الله، حتى بلغت هذا الحَدَّ من التلاعب بالألفاظ

بالزيادة والنقص والتصحيف، والتحريف للمعاني بالتأويلات الفاسدة، وصرفِ اللفظ عن معناه ومغزاه، حتى صار ذاك دَيْدَنهم وهِجِّيراهم، فلا عجب أن تفضي بهم إلى النسيان لحظٍّ وافرٍ مما ذُكِّروا به من خيرٍ وهُدى. وجرائم اليهود المتعاقبة دليلٌ على نَقْضِهم للعهودِ ونبذهم للمواثيق، وما طُبِعوا عليه من غدرٍ وخيانةٍ، فلا يمرُّ يومٌ ولا ينقضي ليلٌ إلا ويُسْفِرُ عن جرائمهم التي لا حَدَّ لها. وقد دعا الله تعالى، ورغَّب في العفو والصفح والتسامح تأليفاً للقلوب وإزالةً للضغائن ونزعاً للأحقاد، فالله تعالى يحب عباده المؤمنين الذين يقابلون الإساءة بالإحسان.

١٤ ـ بَيَّنَ تعالى حال الطائفة الأخرى، الذين زعموا أنَّهم يناصرون المسيح، وأنَّى ذلك وقد أُخِذَ عليهم الميثاق لكنهم تركوا حظّاً ممَّا ذُكِّروا به، فبَدَّلوا وغَيَّروا ووقعوا في الغلوِّ والضلال، فتفرَّقوا أحزاباً وشيعاً، وتفرَّقوا طوائف ونِحَلاً. تلك الآفة عقوبة لهم على النسيان، مع العداوة التي دَبَّت إلى قلوبهم، وخَيَّمت في صدورهم والبغضاء التي ألقت بكَلْكَلِها عليهم، فلا تجتمع لهم كلمةٌ، ولا تصفو مودةٌ، بل يقاتلُ بعضُهم بعضاً، ويضطهدُ قويُّهم ضعيفَهم ويقهرُه، ولا تزالُ كلُّ طائفةٍ منهم تَدَّعي أنَّها الباقيةُ على الحقِّ، وتُكَفِّرُ غيرها، وتَحْمِلُ البغضاء لها، ولَسوف يحاسبهم الله تعالى على جرائرهم، ويجازيهم بها.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ النسيانُ الذي يراد به الترك والتضييع للأوامر، وهو آفةٌ من الآفات، تُفْضِي إلى الحِرْمان والحَسَرات، وهو عمليٌّ وعلميٌّ، وقد نتَجَ عن النسيان الحَيرةُ والفُرقة والشقاق، وعبَّر بالماضي ﴿وَنَسُواْ﴾ لأنَّ النسيانَ مضَى وانقضَى مع بقاءِ آثارِه، ومنها ضَياعُ نصيبٍ كبيرٍ من كلام الله، واختلاطُ ما بقي بكلام غيرِه. وعَطَفَ النسيانَ على التحريفِ لما بينهما من تلازُمٍ، فالنسيانُ آفةٌ ناجمةٌ عن التحريف.

٢ ـ نَقْضُ اليهود للمواثيق والعهود دَيْدنهم وهِجِّيراهم، فينبغي الحذرُ منهم.

٣ ـ قسوة القلوب آفة عظيمة، كم أفْضَتْ إلى أهوالٍ عظام، فقد دفعت اليهود إلى تحريف كلام الله إلى ما يوافق أهواءهم الجامحة ونفوسهم المعتلة

وميولهم العدوانية ونزعاتهم العنصرية، وهنا تبرز الصلةُ الوثيقةُ بين قسوةِ القلوبِ، وتحريفِ الكلم عن مواضعِه، ولا قسوةَ أعظمُ من الجُرأة على تغييرِ كتابِ اللهِ وتحريفِهِ.

٤ ـ بيان من إعجاز القرآن الكريم التاريخي والمستقبلي، فقد نشر صفحات من الماضي، وجلَّى أنباء المستقبل، وأكَّد بقاء كثير من اليهود والنصارى على موقفهم العدائي، وخياناتهم المتكررة، فلا يمرُّ يومٌ، ولا ينجلي صبحٌ إلا على مكايدَ لأعداء الدين من اليهود والنصارى، تُضاف إلى سِجِلِّهم الحافل بالضغائن، مع ما تبوح به ألسنتهم، وتنفثه صدورهم من عداوات.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ
تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ
مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ
ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦ لَّقَدۡ كَفَرَ
ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ
أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ وَقَالَتِ
ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ
خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ
ٱلۡمَصِيرُ ١٨ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا
جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾

التفسير:

١٥ ـ بعد أن تحدَّث القرآن عن أحوال الطائفتين، دعاهم إلى الإيمانِ بهذا النبيِّ ﷺ الذي جاء ليُبَيِّنَ لهم كثيراً ممَّا أخفوه من الحقائق والحوادث التي وردت في التوراة والإنجيل، وقد أخفاها بعضُ الأحبار والرهبان عن

أتباعهم، أو تناسَوها، كإخفائهم لأوصاف النبي ﷺ وإخفائهم لآية الرجم، وغير ذلك من الحقائق والأحكام، وإن ترك ما لا تدعو الحاجةُ إلى بيانه، ففيما بَيَّنَه الكفايةُ والغُنْيَةُ.

١٦ ـ والنبي ﷺ نور من الله تعالى لأنَّه جاء بالهدى والحق، والقرآن نُورٌ عظيمٌ وكتاب مُّبِينٌ؛ لأنَّه أضاء للناس طريقَهم، وأنار دروبَهم، وأبانَ لهم ما خَفِيَ عليهم، وبَدَّد ظلامَ الشكِّ والحَيرةِ، فهو الهداية إلى سبل الهدى والسلام في الدارين، وهو المخرج من ظلمات الفتن، ودياجير الضلال والحيرة، إلى نور العصمة والهداية.

١٧ ـ وتُقَرِّر الآية كُفْرَ مَنِ اعتقد أنَّ المسيحَ ابنُ الله، فالمسيح عليه السلام بشرٌ رسولٌ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، وإن أراد الله أن يُهلكه وأُمَّه ومَنْ في الأرض جميعاً فلا يملك أحدٌ من الخلق أمراً، وكل ما في السموات والأرض ملكٌ لله تعالى وتحت قدرته تعالى، لا يقدر أَحَدٌ من المخلوقين أن يدفع عن نفسه ضُرّاً كتبه الله، فضلاً عمَّنْ يدفع عن غيره ما حَلَّ به.

١٨ ـ زعم اليهود والنصارى أنَّهم أبناء الله وأحباؤه، فما البيِّنة على حُبِّ الله لهم؟ وماذا قَدَّموا لينالوا محبة الله؟ وهل يُقَصِّر المحبُّ في شأن حبيبه، ويفرِّطُ في حقوقه، ويأتي بما يُسخطُه، أو أنَّهم من جنسٍ آخر؟ بل هم بشرٌ كسائر البشر، قد أثقلتهم الخطايا، والخلق كلُّهم سواء. مَنْ شاء الله عذَّبه ومَنْ شاء غفر له، فإن عذَّب فبعَدْله، وإن غفر فبرحمته وفضله، فالكلُّ عبيدُه، يتصرف فيهم كيفما أراد، وإليه مآبهم يحكم فيهم.

١٩ ـ ويأتي النداء لأهل الكتاب يُعْلِمُهم بمجيء خاتم النبيين بعد اندراس السبل، وفترة من الرسل بالبيانِ القاطِعِ والبرهانِ الساطِعِ؛ لئلَّا يكونَ لهم على اللهِ حُجَّةٌ، ولا يبقى لهم عذرٌ. والله تعالى قادرٌ على إرسال الرسل وتأييدهم بالمعجزات الباهرة والآيات البيِّنة، وقادرٌ على نصرهم وخِذْلانِ مَنْ تولَّى عنهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ حَثُّ أهل الكتب، وترغيبهم في الإيمان بخاتم النبيين، فقد جاء بالحجج النيِّرة، والآيات الباهرة، والخير للإنسانية.

٢ ـ جمع ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ لتعدد أسباب السلام وميادينه وكثرتها.

٣ ـ بطلان معتقد النصارى في المسيح؛ إذ الابن لا يكون عبداً لأبيه، وبطلان دعاوى اليهود والنصارى أنَّهم أبناء الله البررة وأحباؤه.

٤ ـ جواز تَرْكِ ما لا تدعو الحاجة إلى بيانه أو تأخيره، اكتفاء بما بُيِّن.

٥ ـ خُلُق المداراة والإعراض من أدب النبي ﷺ يدلُّ على حسن المعاشرة، ودوام الألفة والإقبال، والتشويق والترغيب.

٦ ـ بعثة الرسول بعد فترةٍ من الرسلِ، وقد هاجَتِ الأشواق، واشرأبَّت الأعناق أدعى إلى المبادرة للإيمان به، ومناصرته ومحبَّتِه، لا إلى مُناصَبَتِه العداءَ، وجحودِه والتآمُرِ عليهِ؛ فالقلوب الصافية تَحِنُّ شوقاً لهذا النبيِّ ﷺ.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم
مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ
ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا
لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ
ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى
ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ
فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى
وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ
يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

التفسير

٢٠ ـ في هذه الآياتِ مشاهدُ ومُساجلات بين موسى عليه السلام وقومه، تكشفُ عن تمرُّدِهم وعنادهم، وتنمُّ عن سوء أدبهم وتقاعسهم عن نصرة نبيهم، وهذا موسى عليه السلام يُذَكِّرهم بنِعَم الله الجليلة عليهم، لعلَّ قلوبهم تَرِقُّ وتلين، ومن بينها أن جعل فيهم أنبياءَ يهدون للخير، وجعل منهم الملوك بعد أن كانوا أرقَّاء مستضعفين، خَدَماً مقهورين، كطالوت وداود وسليمان عليهم السلام، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من عالَمِي زمانهم، وفَضَّلهم على عالَمِي زمانهم، كما فَضَّل أُمة محمد ﷺ على سائر الأُمم قاطبةً.

٢١ ـ وبعد أن ذكَّرهم بنِعَمِ الله عليهم، وذكرهم بماضيهم القريب، وما آل إليه أمرُهم من هدايةٍ وتمكينٍ هيَّأهم لهذا التكليف الذي ينتظرهم فأمرهم بدخول بيت المقدس، وبشَّرهم بأنَّ الله تعالى كتب لهم دخوله، تأكيداً للأمر، وحضّاً على المبادرة إليه فالنتيجةُ سابقة، وما عليهم إلا المبادرة والعاقبةُ مأمونةٌ والمعركة محسومة، فإن تقاعسوا عن أمر الله فقد ارتدُّوا على أدبارهم، وانتكسُوا، وباؤوا بالخذلان والخسران.

٢٢ ـ وبعد كلِّ هذه المقدمات أظهروا تخاذَلهم، ونقضوا عهد الله ووعده، وقالوا لنبيهم: إنَّ فيها قوماً أشداء أقوياء، نخشى بأسهم، ولا طاقة لنا بلقائهم، وعَلَّقوا دخولهم على خروجِ أهلها عندئذٍ يدخلون آمنين سالمين.

٢٣ ـ لكنَّ للحقِّ رجالَه وإن عَزُّوا، فهذان رجلان صالحان من خيرة الرجال يقفان وقفةً جديرةً بأن يسجِّلها الله في أشرف كتبه وأعظمها. إنَّها الرجولةُ والشهامة التي تظهر في المواقف العظام، مع دوام الخوف من الله؛ فإنَّ مَنْ خافه لا يخاف من أحد سواه، ومَنْ لم يخف الله تعالى خاف من كلِّ شيء. من أجل ذلك جاءت نصيحتهم العظيمة: لتكن المبادرة منكم، فخذوا بالأسباب، وأطيعوا ربكم، واتَّبِعُوا نبيَّكم، واقتحِمُوا على الجبابرة معاقلهم، تنالوا النصر والغلبة عليهم. ومع الأخذ بالأسباب فتوكَّلوا على واهبها ومليكها إن كنتم مؤمنين، فالتوكُّل من أحوال الصادقين، وبقدر الإيمان يكون التوكُّل.

٢٤ ـ لكنَّ القومَ مع هذا كله أصرُّوا على موقفهم، وتمادَوا في غيهم، وحسموا موقفهم، موقف التمرُّدِ والعصيان والتقاعس والخذلان، فأجابوا إجابة الجبان المتخاذل، دون اكتراثٍ ولا احتشام، خاطبوا نبيَّهم بما ينمُّ عن سوء أدبٍ، مؤكِّدين أنَّهم لن يدخلوها أبداً طالماً بقي فيها أولئك الجبارون، إلا أن يخرجوا، فعندئذ يدخلونها فاتحين ظافرين دون أن يُراقَ لهم دم، أو تتغبَّر لهم قَدَمٌ، أو يُقَدِّموا أدنى تضحيةٍ.

٢٥ ـ وهنا لم يملك موسى عليه السلام إلا أن يتوجَّه إلى خالقه وناصره، مبيِّناً ثباته على العهد، وتأهُّبه هو وأخوه هارون للأمر، ويقينهما بالوعد، ومبدياً الأسى والاعتذار، وراجياً المفاصلة بينه وبين الخارجين عن طاعته المارقين عن أمره.

٢٦ ـ فعاقبهم الله تعالى في التيه بصحراء سيناء، وحَرَّم عليهم دخول بيت

المقدس أربعين سنة تأديباً لهم، وأوصاه بألَّا يأسفَ عليهم؛ فهم خارجون عن الطاعة، مجاهرون بالمعاصي.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ دلَّت القصة على طبائع غالب اليهود الرديئة، وأخلاقهم الذميمة، ومنها: الجبن والتخاذل والتقاعس، وسوء الأدب، وما لحق بهم من المذلَّة والهوان والحرمان.

٢ ـ في القصة تسليةٌ للنبي ﷺ؛ فإذا نكث اليهود مع نبيهم الذي بُعث فيهم ونجَّاهم الله به، فما عسى أن يفعلوا مع خاتم النبيين عليهم السلام! وقد عرفوا فأنكروا، ولاحت لهم الحُجَجُ فكابروا، وحَمَلَهم البغي والحسد على معاداته.

٣ ـ بقَدْرِ المحبة والتعظيم، والخوف والرجاء، يكون امتثال العبد لربه.

٤ ـ التوكل على الله تعالى من ثمرات الإيمان وعلاماته.

٥ ـ التقاعس عن الجهاد يقود إلى التيه والضياع والشتات.

٦ ـ ينظر: صورة صحراء سيناء في الملحق لبيان مكان التيه.

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ
قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ
يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ
مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ
يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

التفسير:

٢٧ ـ في هذه القصة بيانٌ لأول جريمة في تاريخ البشرية، ودوافع أول بادرة غدرٍ، فهي جديرةٌ بأن تتلى؛ ليُنتفع بها. وقد بدأت فصولُها بتنافسٍ بين الأخوين ابني آدم في القربان، أما أحدهما فقدَّم أجودَ ما عنده عن طيبِ نفسٍ راجياً القَبول، وأما الآخر فتقاعس في هذا التنافس، وقَصُرَتْ هِمَّتُه، فقدَّم

أردأ ما لديه، وجلس يترقَّب القَبول، فتقبَّل اللهُ من الصالح قُرْبانَه، ولم يَتَقَبَّلْ من الآخر. وهنا قال لأخيه متوعِّداً: لأقتلنَّك، فأفصح عما يختلج في صدره، وفضح ما يضمره، دون أن يُفَكِّر في سبب ردِّ عمله وخيبة أمله. وكان جوابُ هابيل كافياً لإطفاءِ النار التي تضطرمُ في القلب الحاسد بهذا البَلْسَم الرقيق، حين لفت أخاه إلى أنَّ التنافس على رضا الله تعالى ميدانٌ رحيبٌ يتَّسعُ للجميع، وأنَّ ما عند الله من الثواب والعطاء لا منتهى له ولا حَدَّ، فلماذا تَضِيقُ النفوسُ، وتَقْصُرُ الهِمَمُ، والمضمارُ فسيحٌ؟ ولماذا لا ينشغلُ العبدُ بإصلاح نفسه، وتزكيتها وإخلاص نيته وتنقيتها، وتجويدِ عملِه؟ إنَّ القَبولَ للأتقياء، فكن يا أخي تَقِيّاً يقبل الله منك، وفي ذكر التقوى في هذا المقام تخويفٌ له وزجرٌ وصَرْفٌ عن هذا الخاطرِ الرديء.

٢٨ ـ ٢٩ ـ ويواصلُ الأخُ البارُّ نُصْحَه متدرِّجاً ومهيِّجاً لمشاعر الأخوة، ومُحَذِّراً من هذا العملِ الآثم فيقول لأخيه: لن أقابل صنيعك بمثله، فأتساوى بك في الخطيئة والجُرم، فكَفُّ يدي عنك ليس عن ضعفٍ أو عجز، لكنه الخوفُ من الله ربِّي وربِّك وربِّ كل شيءٍ، وقَتْلُ النفس الإنسانية عدوانٌ على مَنْ خلقه اللهُ وربَّاه. وهنا تصلُ الكلماتُ إلى نهايةِ المطاف، ويأتي الهتافُ الأخيرُ لعله ينهضُ بتلك النفسِ العليلةِ، ويثيرُ خوفَها من العاقبة الوخيمة، إن هي أقبلت على الجريمة، فلَطالما أصرَّ الحاسدُ على قَتْلِ أخيه البارِّ فإنَّه لن يُبديَ مقاومةً، ولْيَتَحَمَّلِ الجاني مسؤوليةَ جنايتِه، وأوزار من جنى عليه؛ ليهويَ بها في جهنم. وهذا هو الإنذارُ الأخيرُ للجاني؛ لعله يتراجعُ عن عزمِه، كما بَيَّنَ له أنَّ ما يتوعَّد به ظلمٌ، وعاقبة الظالمين النار، وفيه تعريضٌ بما يريدُه أخوه من شرٍّ وهلاكٍ، وتوجيهٌ له إلى الإرادةِ المحمودة، وهي إيثار السلامة.

٣٠ ـ لقد استفرغ الأخ البارُّ جُهْدَه في نُصْحِ أخيه ليَثْنِيَه عن وعيده، ويَصْرِفَه عن جريمته، فهل استجاب ذلك الأخُ القاسي لموعظة أخيه واستعطافه له؟ كيف ونفسُ الحسودِ قد زَيَّنَتْ له هذا الفِعْلَ الشنيع وحَرَّضَتْه عليه، فانقاد لها، وأَقْدَمَ بكلِّ وحشيَّةٍ على قتل أخيه التقي؟ ومثلَ هذا الفعل الشنيع لا تُهَوِّنُه إلا النفوس الجامحة، فباء بالخسران، وأيُّ خُسارةٍ أعظم من

قتل نفس بريئة استجابةً لنفسِه الأمَّارةِ وإرواءً لقلبٍ مفعم بالحقد والكراهية؟ وأيُّ خسارة أعظم من أن يتحمل قِسماً ونصيباً من كل جريمة قَتْلٍ على وجه الأرض، ويحرم من صفوِ العيش، ويشعر دائماً بوخز الضمير؟!

٣١ ـ وبعد الجريمة النكراء لم تَطُلْ حيرتُه، إذ بعث الله له مَنْ يرشدُه كيف يَتَصَرَّف؟ غرابٌ يحطُّ على الأرض، وينبشُ فيها، وهنا استوعب الدرسَ وأدرك المطلوبَ منه، ورجع إلى نفسه باللوم؛ كيف وقف عاجزاً عن مواراة أخيه، وساءه ما أقدم عليه، وشعر بالندم على فعلته؟

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ مشروعية التقرُّب إلى الله تعالى بصالح الأعمال، وأحبِّها إليه تعالى.

٢ ـ الحسد من أسباب الصدود عن الحقِّ والكيد لأهله؛ إذ يُعْمِي عن البصائر، ويُصِمُّ عن المواعظ، فينبغي رَدُّ الحاسد عن حسده بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، وصَرْفُه إلى النظرِ في أسباب قصوره عن نيل المطالب، والسموِّ إلى المعالي، وتدارُكِ الحظوظ بالعملِ وسلامة القلب.

٣ ـ في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ جَمَعَ في الكلام بين لفظ الجلالة وعنوان الربوبية؛ لتدورَ النفس بين مقام الهيبة والإجلال والتعظيم والمحبة.

٤ ـ التلطُّف واللِّينُ، والتدرُّج في النصح، أرجى لسماعه، وأدعى لقبوله.

٥ ـ حاجة المجتمعات إلى التدابير الواقية من الجريمة، بالتربية الراشدة، وغرس بذور المودة والتسامح، ونبذ أسباب الشقاق والعداوة. وكم تَعَلَّمَتِ البشرية ـ ولا تزال ـ كثيراً من المعارف، وكم أبدعت كثيراً من الآلات والتقنيات استلهاماً واقتباساً من العوالم المحيطة بها!!

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

التفسير:

٣٢ ـ لخطورةِ جريمة سفك الدماء، وشناعة قتل النفس البريئة، والاعتداء على حقها في الحياة، أوجب الله تعالى على بني إسرائيل في كتبه، وعلى لسان رسله وألزمهم، أنَّ مَنْ قتل مَنْ لا يستحق القتل؛ لأنَّه لم يَقْتُلْ أو يُفْسِدْ في الأرض، فكأنَّما بجُرْمِه هذا قَتَلَ الناس جميعاً؛ فقَتْلُ فردٍ كقَتْل شعبٍ بأسره، ومَنْ أنقذها أو حماها، كمَنْ ينقذ غريقاً أو ينتشل حريقاً، وكالطبيب الذي يداوي العلل، ورجل الأمن الذي يمنع الجرائم قبل وقوعها، والقاضي الذي يحكم بالقصاص على القاتل، ففيه حياةٌ للنفوس، وسائر مَنْ ساهم في إنقاذ نفسٍ فكأنَّما أحيا الإنسانية جميعاً. لقد أرسل الله رسله في بني إسرائيل بالحُجَجِ الباهرة والشرائع القويمة، لكنَّ الكثيرَ منهم بقي على فِسْقِه وإسرافه في الأرض بإهدار الدماء، وهَتْكِ الأعراض، واستحلال الأموال.

٣٣ ـ بيان جزاء المحاربين لله ورسوله؛ فإنَّ حَرْبَ المؤمنين وأَذِيَّتهم حربٌ لله ورسوله، وخروجٌ عن طاعة الله ورسوله، والحكم يشمل كلَّ محاربٍ، سواءً كان في بادية أو حَضَرٍ، في طريق أو في بلدٍ، فكلُّ مَنْ يقطع الطريق ويُرَوِّع الآمنين، ويُرَهِّبهم، ويسعَى في الأرض مفسداً فيها، ومفسداً لها، فالفساد وسيلتهم وغايتهم، فجزاؤُه القتلُ أو الصلب بلا هوادة ولا رفقٍ، أو تقطيع الأيدي والأرجل من خِلاف ـ بقَطْعِ اليد اليمنى من الرسغ، والرِّجْل اليسرى من الكعب ـ بدون لينٍ ولا رأفة، أو النفي من الأرض. فمَنْ قتل

ونهب المال قُتِلَ وصُلِبَ، ومَنْ أخذ المال ولم يَقْتُلْ قُطعت يده ورِجْلُه من خِلاف، ومَنْ أخاف السبيل ولم يَقْتُلْ ولم ينهب مالاً نُفِيَ من الأرض التي يستقوي فيها، ويفسدُ عليها. هذا العقاب المهين خزيٌ في الحياة الدنيا، وفي الآخرة عذابٌ أليمٌ لا يطاقُ.

٣٤ ـ واستثنى الله مَنْ تاب قبل أن يُقْدَرَ عليه، والكافر المحارب إذا أسلم؛ فالإسلام يَجُبُّ ما قبله، أما مَنْ حارب مِنْ أهل القبلة، وتاب قبل التمَكُّن منه، فقد سقط عنه حقُّ الله، وبقي حقُّ الآدميين من دماء وأموال. ويَحِقُّ لولي الدم أن يعفوَ كما يحقُّ لصاحب المال إسقاطه. وفي ختم الآية بالاسمين الجليلين ترغيبٌ في العفو والمسامحة لِـمَنْ تاب قبل أن يُقدر عليه.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ في تخصيص بني إسرائيل بالذِّكْرِ تقريرٌ للحكم الشرعي، وبيانٌ لكونه أصلاً من الأصول التي اتفقت عليها الشرائع، وإنكار لحال المفسدين منهم.

٢ ـ بَيَّنت الآيةُ الثانيةُ حدَّ الحِرابة، وهو يتفاوت بحسب الجُرم.

٣ ـ يجمعُ القرآنُ بينَ الحُكْمِ الشرعِيِّ والحكمةِ منه. وفي هذا تقريرٌ للأحكام، وترسيخٌ لها في القلوب، ودَفْعٌ لما قد يثار حولها من شُبَهٍ واعتراضاتٍ، كما يَعْقُبُ الحديث عن المعاصي ـ مهما عظمت ـ الدعوةُ إلى التوبة، وفتح باب الأمل والصلاح أمام العصاة.

٤ ـ الخبيثة التي جُبِلَتْ على الشر تحتاج إلى ما يردعها، ويَكُفُّ شَرَّها، والنفوس الطيبة الوادعة تحتاج إلى مَنْ يحميها ويَصُونها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾﴾

التفسير:

٣٥ ـ لما بَيَّنَ الله تعالى حالَ مَنْ تَعَرَّض لسخَطِه بالإفساد في الأرض،

نادى عباده المؤمنين؛ ليُبَيِّن لهم طريق رضاه، فأمرهم بالتقوى، فهي حِرْزٌ أمينٌ، وسياجٌ حصينٌ للنفس والمجتمع، والمجتمع التَّقي مجتمع صالحٌ آمن، غايته رضا الله تعالى. وأَمْنُ المجتمع وحمايتُه من أعداءِ الإنسانية لن يتحقق إلا بالجهاد، فهو سبيل الأمن والاستقرار والعدل والإنصاف، ومجتمعٌ مؤمنٌ يتنافسُ أفراده على رضا الله تعالى وحده بالقُرُبات والطاعات، ويجاهدون في سبيله تعالى بكلِّ ما يملكون من قوةٍ وعتادٍ، رَفْعاً لكلمته، وحمايةً لعباده، مجتمعٌ آمنٌ مطمئنٌّ، لا مكان فيه للجريمة والفساد، ولا حاجة حينئذ إلى النفقات الباهظة على حماية الأمن.

٣٦ ـ لما ذكر تعالى طريق التقرب إليه وابتغاء مرضاته، بَيَّنَ الله تعالى حال الكافرين، وأنَّ باب التوسُّل أمامهم مُوصَدٌ؛ إذ لم يطرقوه في الدنيا، فلو تملكوا ما في الأرض جميعاً من كنوزٍ وأموالٍ وسهولٍ وجبالٍ وغيرِ ذلك من خيراتِ الأرضِ، ومثل ذلك معهم؛ ليخلصوا به من عذابِ الآخرةِ، ويَتَقَرَّبُوا إلى ربِّهم، ما تقبَّلَ منهم، كيف وقد طُلِبَ إليهم اليسير في دنياهم التي انقضت؟ فمصيرهم إلى عذاب النار الموجع.

٣٧ ـ ثمَّ بَيَّنَ تعالى حالَهم في جهنم وسَعْيَهم إلى الخروج منها، وما هم بخارجين منها، بل ماكثون أبد الآبدين، ولابثون في العذاب المقيم الذي لا انقطاع لوَيْلاته، ولا سبيل إلى الفرار منه.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ قدَّم التقوى على التوسُّل لأنَّها هي الأساس، وبها يتقرب العبد لربِّه، وبدونها لا يُقبل العملُ.

٢ ـ معيارُ القبول هو الإيمان والعمل الصالح مصحوباً بتقوى الله تعالى.

٣ ـ بيانٌ لمنهج الإسلام في تهذيب النفوس والنهوض بها، وترويضها وتزكيتها، بعد أن فتح باب التوبة أمام الجُناةِ والآثمين.

٤ ـ الإيمان والتقوى والتوسُّل إلى الله تعالى بصالح الأعمال وأحبِّها إليه، والجهاد في سبيل الله من أسباب الفلاح في الدارَين.

٥ ـ بَيَّنَت الآية صورة المجتمع الذي ينشده الإسلام، مجتمع الإيمان والتقوى، مجتمع الرقي والنهوض، مجتمعٌ تسامَتْ هِمَمُ أفراده، وصَدَقَتْ

نياتهم، وتَوَحَّدت أهدافهم، فرِضا الله وقُرْبُه غايتهم، والجهاد سبيلهم إلى العزة والكرامة والفلاح في الدارَيْن.

٦ ـ المنهاج الرباني يقيم الفرد المسلم، وينهض بالمجتمع، ويَصُونه بالأحكام الراشدة والبينات والمواعظ والأمثال البليغة التي تسمو بالأرواح، وتستنهض الهِمَمَ، وتُوقظ الضمائر، وتَجْلُو القلوب، وتزكو بها النفوس، وبذلك تَسْلَمُ المجتمعات من الجرائم.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

التفسير:

٣٨ ـ بَيَّنَ الله تعالى جزاء مَنْ سَرَقَ غصباً، ورَوَّع الآمنين، وعطف السارقةَ على السارقِ؛ لئلَّا يُتوهَّم أنَّ المرأةَ إذا سرقت لا يُقامُ عليها الحدُّ رأفةً بها. وتقديمُ السارق على السارقة لأنَّ الرجالَ أجرأُ على تلك الجريمة، وأكثر ما تقع السرقة منهم، وأمر تعالى بقطع يد السارق اليمنى، تُقْطَعُ الكَفُّ إلى المِعْصَم، كما جاء بيان ذلك في السنة. وهذا الجزاءُ عادلٌ لا ظلم فيه، وفيه تنكيلٌ بالسُّرَّاق، أي: عقوبةٌ لهم ورَدْعٌ وزجرٌ لكلِّ مَنْ هَمَّ بهذا الأمر، والذي حكم هو الخالق سبحانه ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عَزَّ تعالى فحكم، وفي شرعه العزةُ لأوليائه في الدارين، والمذلةُ والهوانُ لِـمَنْ خالفه وعصاه، وهو العزيزُ فلا يمتنعُ عليه شيءٌ، وهو تعالى حكيم في شرائعه وأقداره وسُننه، شرع تلك الأحكام المنطوية على حِكَم ومصالح.

٣٩ ـ فمَنْ نَدِمَ على ما فات، وتدارَكَ ما ضَيَّع، وكفَّ ظُلْمَه، وأصلح ما فَسَدَ من أمرِه، تاب اللهُ عليه وأصلح من شأنه، فهو تعالى الغفور لكلِّ ذنبٍ مهما عظُمَ، الرحيمُ بعباده التائبين، وكما قَبِلَ الله التائبَ فالواجب على

المجتمع أن يقبلَه أخاً صالحاً وعضواً نافعاً، لا أن تلفظه المجتمعات، فيعود إلى أوكار الجريمة، ويرتمي في أحضان أهل الشرِّ بعد أن تَبَرَّأ منه أهل الخير، فلا عملٌ شريفٌ يحتويه، ولا بيتٌ كريمٌ يُؤْوِيه، ولا صُحبةٌ صالحةٌ تأخذُ بيده.

٤٠ ـ في الآيةِ تقريرٌ لما سبق من أحكام، فالذي حَكَمَ وَشَرَّعَ هو مَنْ له المُلكُ التامُّ والتصرُّفُ المطلقُ، وللمالكِ أن يتصرَّف في ملكِه كيف يشاءُ، يُعَذِّبُ مَنْ يشاءُ بعدلِه، ويغفرُ لِـمَنْ يشاءُ برحمتِهِ ولطفِه، وهو القادرُ على إنفاذِ وعيده وإنجاز وعده، فلا يُعْجِزُه شيءٌ.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ قَطْعُ يدِ السارق عقوبة عادلةٌ ومتوازنة. وإذا نظرنا إلى عقوبات السرقة على مرِّ العصور وجدنا وسطية التشريع الرباني، وعَدْلَه وواقعيته، فالسارق كان يُقتل في بعض الأُمم، أو يصيرُ عبداً أسيراً عند من سرقه، بينما في القوانين المعاصرة يُودَع في السجن. وقد يرى بعضهم أنَّها عقوبة يسيرة بالمقارنة بالقتل أو الاسترقاق أو القطع، لكنها ليست رادعة، وليست كافية لإصلاحه وتهذيبه. وهذه العقوبة وإن كان ظاهرها الشدة فإنَّ باطنها الرحمة، فهي رحمةٌ بالضحايا الذين لا ذنب لهم، رحمةٌ بالضعفاء، ورحمة باللصوص، وهي فَتْحٌ لباب التوبة والإصلاح، ورحمة بالمجتمع حماية له من هذه الجريمة، وتخليصٌ من تلك الآفات، ففيها مراعاة لمصالح العباد وأَمْنِهم، وقد أدَّى التهاون في هذه الحدود وتعطيلها في كثير من البلدان إلى انتشار السرقات.

٢ ـ المنهج القرآني يهدف إلى إصلاح المجرم، وتأهيله للعودة إلى المجتمع، عضواً نافعاً ومؤمناً صالحاً، وعاملاً منتجاً.

٣ ـ التنويه بمنهج القرآن الكريم في بيان الأحكام وتقريرها، ودفع ما يُثار حولها من شبهات.

٤ ـ في خَتْمِ الآيات الثلاث بأسماء الله الحسنى ما لا يُحصى من الفوائد واللطائف، فكلَ خاتمة مناسبة لآيتها مقررة لما ورد فيها. إذ تُنَوِّه بثمرات

معرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى، وأثرها في إصلاح الفرد والمجتمع واستقامة الحياة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾

التفسير:

٤١ ـ نداءٌ للرسول ﷺ، ينهاه الله فيه عن الأسى والحزن من كيد العِدا، الذين يسارعون في الكفر، ويتهافتون عليه، ويتساقطون في ظلماته، من المنافقين الذين أظهروا الإيمان ولمَّا يَسْرِ إلى قلوبهم التي تمادت في كفرها وغَيِّها، وكذلك من اليهود الذين أولعوا بسماع الكذب حتى صار لهم إلفاً يستعذبونه، وينفرُون من الصدقِ ويَضيقُون به، ويميلُون إلى مَنْ على شاكلتهم، يلوذون بهم ويألفونهم، ويستجيبون لهم، وينقلون لهم الأخبار، إذ لم يحضروا مجالسك، ولم يأتوا لسماع كلامك، بل تَجافَوا عنك؛ نفوراً وحقداً، وكِبْراً وحَسَداً، وهم مع ذلك يتأوَّلون كلام الله بغيرِ تأويله، ويصرفونه عن معناه ومغزاه، ويحرفون اللفظ بإزالتِه واستبدال غيرِه به، كما فعلوا في آية الرجم، فقد كتموها، واستبدلوا بها الجَلْد والتَّحْميم، فانكشف أمرُهم، وقد صار التحريف لهم أمراً مألوفاً، بل أضحى صنعةً يتفَنَّنون فيها،

وحِرْفةً يتكسَّبون بها، قَلْباً للحقائقِ، ونَشْراً للأباطيلِ، وسعياً إلى التلبيسِ، فتعطيلُهم لحدِّ الرجم وتبديله من تحريف الكَلِم من بعد استقراره واشتهاره في كتبهم يسعون إلى إخفائه وتبديله، بل ويتواصَوْن على أن يأخذوا منك ما لا يُعارضُ أهواءهم، ويحذَروا من حكم الله تعالى، وفيه العدل والرحمة! لكنَّها حكمة الله تعالى بهؤلاء المبعَدين المحرومين ألَّا يطهرهم من رجس الكفر وأدران الشرك التي انغمسوا فيها، فلا سبيل إلى خروجهم من هذا المستنقع، فهم ليسوا أهلاً للطُّهر؛ فما تملك لهم، وقد سقطوا في جحيم الفتنة مختارين؟

٤٢ ـ أَلِفُوا سماع الكذب حتى صار لهم دَيْدَناً، وكأنَّهم لا يسمعون غيره، وبَلَغَ بهم الحرصُ كلَّ مبلغٍ، حتى أدمنوا أَكْلَ الحرام الذي يُذْهِبُ البَرَكَةَ ويَمْحَقُها. ودَلَّ اقتران الوصفين على فساد الأخلاق، وشدة الولَع بالباطل، واستعذاب سماعه، والنَّهم بالحرام، وبعد أن فضح اللهُ أمْرَهم خيَّر نبيَّه بين التحكيم بينهم أو الإعراض، فإذا حكم بينهم يتعين عليه أن يحكم بما أنزل الله، وإن يُعرض عنهم، فلا مَضَرَّة في ذلك، فإنْ حَكَمَ فليحكُمْ بالقسط فهو مطلوبٌ ومرغوبٌ، والله تعالى يحبُّ العادلين.

٤٣ ـ يُنْكِرُ الله تعالى عليهم: كيف يحتكمُون إليك والتوراةُ بين أيديهم فيها الرجمُ، وهو حكمُ الله؛ ثم هم لا يُذْعِنُون للحق، ولا يَرْضخون له! فما هؤلاء البعداء بمؤمنين بحكمِك يا محمد، وليسوا مُقِرِّين بالكتابِ الذي أنزله اللهُ عليك، وبالكتابِ الذي نزل على موسى عليه السلام!

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ تسلية النبي ﷺ، وتثبيته على طريق الدعوة الذي كان محفوفاً بالمخاطر والتحديات.

٢ ـ قَدَّم المنافقين على اليهود لأنَّ خطرهم أشد، وما تمكَّن اليهود، ولا قامت لهم قائمة إلا بمساندة المنافقين، وضعاف النفوس.

٣ ـ بيان ما جُبِلَ عليه اليهود من حُبٍّ للكذب، وشغف لسماعه، وتحالُفٍ مع الآخرين؛ لضرب الإسلام والوقيعة بالمسلمين، وماذا يُنتظر من أُمةٍ أمسى الضلالُ منارَتها، وأضحى الحرامُ شعارها؟

٤ ـ التعامل مع أعداء الحق يتطلَّب حكمة ورويَّة، لسَبْرِ طبائعهم، وفهم أساليبهم.

٥ ـ الرضا بحكم الله تعالى مِنْ طهارة القلوب وصفاء النفوس.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾

التفسير:

٤٤ ـ بعد الحديث عن التوراة التي بين أيديهم، وقد امتدَّ إليها التحريف والكتمان، فضلاً عن التعطيل والهجران، يأتي الحديثُ عن التوراةِ الحقيقيةِ وعن نزولِها ومضمونِها وثمراتِها الطيبةِ، فالتوراةُ وحيٌ من الله تعالى، وتنزيلٌ من لدنه، نزلت بالهدى والنور، هدى للناس، وهي شجرةٌ ظليلةٌ مثمرةٌ استظلَّ بها النبيُّون الذين انقادوا لأوامرِ اللهِ ورَضُوا بحُكْمِه، فهي شِرعتُهم ومنهاجُهم، وبها حَكَمَ الربانيُّون الذين جمعُوا بين تحصيلِ العلمِ النافعِ والعملِ الصالحِ، وكذلك الأحبار الذين بلغوا معالي الرُّتب في العلَم يُحَبِّرونه تحبيراً، وهم أُمَناءُ على كتاب الله، شهداءُ عليه، فهلَّا تأسَّى بهم مَنْ خَلَفَهُم مِنَ اليهودِ، فلا يخافون لومةَ لائمٍ، ولا يستبدلونَ بأحكام دينِهم عَرَضاً زائلاً، فيُفَرِّطون في آياتِ الله، ويُضَيِّعونَها لقاء ثمنٍ زهيدٍ، فإن الحكم بغير ما أنزل الله كفرٌ.

٤٥ ـ ومن جملة ما كتبه الله في التوراة القصاصُ العادل في القتل والجراحات؛ حمايةً للأرواح، وصيانةً للأبدان مع تشريع العفو والترغيب فيه؛ رحمةً وتخفيفاً على العباد. فمَنْ عفا كان عَفْوُه كفارةً لذنوبه؛ لما في ذلك من نزع الشحناء، وحفظ النفوس وسلامة الأعضاء، والترهيب من ترك هذه الأحكام، فمَنْ ترك الحكم بما أنزل الله فهو ظالمٌ لنفسه ولغيره.

٤٦ ـ وعلى درب النبيين والربانيين والأحبار سار عيسى عليه السلام مُصَدِّقاً لما بين يديه من التوراة، مؤمناً بها وداعياً للاحتكام إليها، وقد آتاه الله الإنجيل، ووصفه بأنه هدى عظيم ونورٌ مبينٌ، متوافقٌ مع أحكام التوراة، وموعظةٌ للمتقينَ، وكرَّرَ وَصْفَه بالهُدى؛ لتقريرِ هذا المعنى، ولبيان كونِه هدايةً عامَّةً لبني إسرائيل، هدايةَ بيانٍ وإرشادٍ، فوق أنَّه هدايةٌ خاصَّةٌ لِمَن انتفع به من المتَّقين، وكلامُ الله تعالى يُصدِّقُ بعضُه بعضاً.

٤٧ ـ كما أمر اللهُ النصارى أن يحتكموا إلى الإنجيل الذي أنزله اللهُ على عيسى عليه السلام، لا الأناجيل المحرَّفة التي يُؤمِنُ بها النصارى الآن، وهي مزيجٌ من الحقائق والأباطيل، والتشريعات والأهواء، وليعمل أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ممَّا لا يزالُ باقياً لم يُحرَّفْ، فمَنْ ترك الحكم بما أنزل الله فقد خرج عن طاعة الله، وسنن الأنبياء والصالحين.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ بيان مقاصد التوراة المنزلة وثمراتها في حياة بني إسرائيل، حين حكم النبيون والربانيون والأحبار بها.

٢ ـ التعريض بما آل إليه حالُ اليهود من إفراطٍ وتفريط وإضاعةٍ، ونكبة عن سَنَنِ النبيين والربانيين والأحبار.

٣ ـ بيان كُفْرِ مَنْ ترك الحكم بما أنزل الله وظلمه وفسقه، فمَنْ ترك الحكم بها منكراً وجاحداً لها، أو مستهيناً بها فهذا كفر، ومَنْ تركه مع إقراره بها فهو ظالمٌ أو فاسق، ظالمٌ لأنَّه ترك شريعةَ العدلِ والرحمةِ، وفاسقٌ لخروجِه عن الطاعةِ والاتباعِ، وإعراضه عن سنن الأنبياء والصالحين.

٤ ـ الكفر مراتب: منها الكفر البواح، ومنها كفر دون كفر.

٥ ـ الترهيب من خطورة التحاكم لغير ما أنزل الله من قوانين وضعية

لا تحقق المصلحة، ولا تلائم الفطرة، ولا تعيد الحقوق لأصحابها، ولا تضع الأمور في نصابها.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

التفسير:

٤٨ ـ وأنزل الله تعالى القرآن العظيم آخر كتبه على خاتم رسله ﷺ؛ امتداداً لما سبقه من الكتب وتصديقاً بها؛ فنزوله دليلٌ على صدقها، وهو مهيمنٌ عليها: أمينٌ ورقيبٌ، وحَكَمٌ وشاهدٌ، ومبيِّنٌ لما خَفِيَ منها، ومُوَضِّحٌ لما أُشكل فيها، وحافظٌ يُقَوِّمُ ما اعتراها من اعوجاجٍ، وينفي ما لابسها من أباطيلَ وخُرافاتٍ، مستوعبٌ لما جاء في أصولها، ومتمِّمٌ لها، هو المرجعُ الذي يُحْتَكَمُ إليه عند التنازع في شأنِها، وأمر تعالى بتحكيم كتابه والعمل به، وتعظيمه، ونهى عن اتباع ما عليه أهل الضلال من أهواء.

وقد جعل الله لكلِّ أُمةٍ شرعةً تحتكم إليها، ومنهاجاً تسير عليه بما يحقق مصالحها، ويُلَبِّي حوائجها. ولو شاء الله لَجمع البشرية على منهجٍ واحدٍ وشرعةٍ واحدة، ولكن اختلاف الناس، وتبايُنَ مشاربهم وتوجُّهاتهم من سنة الله ومشيئته. ومن حِكمها البالغة ابتلاء الناس، مؤمنهم وكافرهم، بَرِّهم وفاجِرِهم، فعلى المؤمن أن ينشغل بما يصلحه في دنياه وأخراه من التنافس في عمل الخيرات والاستباق إليها، دون أن ينشغل بمَنْ ضَلَّ ويسألَ عمَّنْ هلك، بل يمضي في طريقه جاعلاً الخيرات وسيلته إلى رضا ربِّه، فإليه تعالى

المرجع والمآب، وكما بَيَّنَ الحُجَجَ والبينات في الدنيا، فإنَّه تعالى يوم القيامة يقضي بين العباد، ويَفْصِلُ بينهم، ويحكم فيهم، ويقيم عليهم الحجج ويجازيهم.

٤٩ ـ ٥٠ ـ ثم يأمرُ الله تعالى بتحكيم شَرْعِه، ففيه الخيرُ والصلاحُ والرحمة بالإنسانية، وفيه البركةُ والسَّعْدُ لكلِّ مَنْ أذعن له ورضي به، وينهى عن اتِّباع ما عليه أهل الضلال من أهواءٍ يحتكمون إليها مع ما فيها من تَعَسُّفٍ وظُلمٍ، ويُحَذِّر من كيد أعداء الدين، وتَحايُلِهم لصَرْفِ أهل الإسلام عن شريعتهم ومنهاجهم، والتلبيس عليهم وتعطيل الأحكام؛ لنشر الظلم وإشاعة الفوضى في المجتمعات. إنَّ الاستجابة لبعض دعواتهم والانقياد لهم، والسقوط في مكايدهم بتعطيل بعض ما أنزل الله فتنةٌ يجب الحذرُ منها. فإن أعرضوا وانصرفوا عن شرعة الله ومنهاجه الذي ارتضاه لعباده وجعل فيه صلاحهم، فاعلم أن الله تعالى يريد عقوبتهم وحرمانهم، ثم أنكر الله على مَنْ هَجَرَ شريعته، ورضي بأهواء الجاهلية مع ما تحمله من جهل وسفهٍ وتناقض وظلم، ومع ذلك تجد مَنْ ينادي بها ويطالب بتطبيقها. وأنكر تعالى على مَنْ يعتقد خلافَ ذلك، ويقرر أنَّ حكمه تعالى هو المقدَّم، فلا يضاهيه ولا يضارعه حُكْمٌ، ولا يمتثل لشريعة الله إلا أهل اليقين الذين وَقَرَ الإيمان في قلوبهم، ونَوَّر بصائرهم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ نزول القرآن الكريم مصدِّقاً لما قبله، ومهيمناً عليه.

٢ ـ في التعبير بـ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بنون العظمة تعظيم للمنزِّل وما أنزل. وفي تقديم الجار والمجرور تشويقٌ للمنزَّل، واعتناءٌ بالمنزَّل عليه.

٣ ـ الحذر من تحكيم الأهواء أو تقديمها على شرع الله؛ لأنَّ شريعة الله نور وحكمة، وعدل ورحمة. أما القوانين الجائرة فإنَّها تُعيدُ الناس لعهود الظلم والاستبداد، والقهر والاستعباد، وتُعَطِّل مسيرة البشرية نحو التقدُّم والنهوض.

٤ ـ الاستباق إلى الخيرات ممَّا يَحُدُّ من فورةِ الخلاف، ويُسَكِّنُ من

ثورته، بل ويجمعُ الناس على هدفٍ واحدٍ، ويضع التنافس في موضعه الصحيح.

٥ ـ من أوجه تصديق القرآن بما سبقه من كتب: أنَّها بَشَّرَتْ بنزوله، كما بَشَّرَتْ بخاتم الأنبياء عليهم السلام، وتصديقُه لها لأنَّها أخبرَتْ بمجيئِه، ووقوعُ المخْبَرِ به يدلُّ على صِدْقِ من أَخْبَرَ، كما يَدُلُّ على صدقِ القرآنِ، لأنَّه لو كان من عند غير الله لم يُوافِقْها، كما جاء مُصَدِّقاً لما نزلَتْ به من أُصولٍ وأحكام وقصصٍ وأمثالٍ ووعدٍ ووعيد، وبما تبقَّى من أُصول وأحكام.

٦ ـ جَمَعَ القرآنُ الكريم بين كونه مُصَدِّقاً لما بين يديه من الكتب والهيمنة عليها. وبين التصديق والهيمنة تلازمٌ، فهو مُصدِّقٌ لما في هذه الكتب من حقائقَ لم تتبدَّلْ، ومُصَدِّقٌ بالكتب المنزلة قبل أن تُحرَّفَ وتُبدَّلَ.

٧ ـ التعبير بـ ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ﴾ لأنَّ محاولاتهم ومساعيَهم قائمةٌ على التزيين والتلبيس والتضليل.

٨ ـ خطورة تعطيل شرع الله أو شيءٍ منه، والتحذير من مكايد أعداء الدين، وأنَّهم لا يريدون أن تقوم للإسلام قائمة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣﴾

التفسير:

٥١ ـ نداء إلهي لأهل الإيمان يحملُ نهياً عن موالاة اليهود والنصارى بعد ما انجلى من أحوالهم؛ فهم أهل نقضٍ للعهود ومكابرة وجحود، وتضليل وتحريف وتبديل، فكيف يُؤمَنُ مَكْرُهمْ، وتُرجى مودَّتُهم، وبعضهم أنصار بعضٍ! والمرء يوالي مَنْ على شاكلته، ومَنْ يجتمع معه على هدف واحد،

فمَنْ تَوَلَّاهم كان منهم، لما تقتضيه الموالاة من دُنُوٍّ وتغاضٍ، فكيف تُرجى هدايةُ من والاهم وقد مالأهم على ظلمهم؟ إن الله تعالى لا يرشد الذين خرجوا عن طاعته.

٥٢ ـ ثم لما نهى الله وحَذَّرَ المؤمنين من موالاة الكفرة، بَيَّنَ حال ضعاف الإيمان ومرضى القلوب، كيف يُسارعون إلى موالاة أعداء الدين، ويُهْرَعُون إليهم، ويَتفانَوْن في مرضاتهم؛ مع ما سَبَقَ من تحذيرٍ؟ فتراهم يَتَوَجَّسون خيفة أن تدول الدولة لأعداء الله، وتدورُ الدائرةُ على المسلمين. إنَّها صورةٌ مُزْرِيَةٌ، صورة المنافق الضعيف الإيمان حين يهرولُ إلى أعداء الله رغبةً وطمعاً أو رهبةً وهَلَعاً. والله تعالى قادرٌ على أن يبدِّل الأحوال، ويأتي بالنصر الذي تنكسر به شوكةُ الأعداء وتخمدُ نيرانُهم، والفتح أعمُّ من النصر؛ لأنَّه تحصيل المطلوب وتحقيق المرغوب، والنصر وسيلة لذلك، و«عسى» من الله نافذة؛ لأنَّ الكريم لا يُطمِعُ إلا فيما يُعطي، وقد لا يتحقَّقُ النصرُ المرتجى في المستقبل القريب، لكن ما وراء الحُجُبِ من أقدارٍ لا يخطر ببال، ولذا جاء ﴿أَمْرٍ﴾ منكَّراً لإفادة الإبهام، فهو أمرٌ عجيب يفوق الحسابات ويسبق العقول. وقوله: ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ لأنَّه من خفايا المقدور، وعجائب التصاريف، فيفضح الله المنافقين ويُوقع بهم، وتدور الدائرة عليهم، بل يتبرَّؤون منهم، ويَتَنَصَّلُون من أفعالهم، فيندمون على مودَّتهم لأعداء الله وموالاتهم، يندمون على ما بدر منهم، ولم يُجْدِ عنهم شيئاً، بل كان سبباً في افتضاح أمرهم، وقد أفاقوا على نورِ صبحِ الحقيقة بعد طولِ تَخَبُّطهم بين ظلام الشبهات ودياجير الفتن.

٥٣ ـ عندما يَنْصُرُ اللهُ عباده، ويأتي الفتحُ، ويُسْفِرُ نورُ الصبح، يقولون للمنافقين: أهؤلاء اليهود والنصارى الذين أقسمتم بالله بأغلظ الأيمان إنَّهم لَمعكم؟ حبطت أعمالهم، وضَلَّ سعيهم، وافتضح أمرهم، وأصبحوا خاسرين في الدنيا والآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ حُرْمَةُ موالاة اليهود والنصارى، وخطرها على الفرد والمجتمع.

٢ ـ صلاح القرآن لجميع العصور.

٣ ـ مَنْ تَبَصَّر بالعاقبة لم يقع في المرهوب، وظَفِرَ بالمطلوب.

٤ ـ موالاة أعداء الله لا يقع إلا من أصحاب القلوب المفعمةِ بالهواجس والشهوات.

٥ ـ مِنْ صدق القرآن الكريم في أنبائه، ما يُشاهَد على مرِّ العصور: كيف باء بالخسران، وظَفِرَ بالخِذْلان مَنْ والى أعداء الدين؟ كيف كانت موالاةُ أعداءِ الله وبالاً على الذين في قلوبهم مرضٌ ممَّنْ عَلَّقوا عليهم الآمال؟

٦ ـ بيان عاقبة الظالم الوخيمة، وحرمانه من التوفيق والسداد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾

التفسير:

٥٤ ـ بعد أن نهى الله عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، وحذَّر من مفاسدها وشرورها، ناداهم محذِّراً مِنْ تَرْكِ دينه، أو التقاعس عن نصرته بأن يستبدل به مَنْ ينصر الدين، وينهضُ بالأُمة. ومن أجلِّ صفات جيل النصر المنشود وأسمى مراتبهم، محبةُ الله لهم. وتلك نعمةٌ لا تعادلها نعمة ومنحةٌ لا تُضارِعُها كنوزُ الدنيا، ومحبتهم الصادقة لله تعالى، وهي دليلٌ على صدق إيمانهم. ومن ثمرات هذه المحبة بُغْضُ مَنْ أبغضه الله، وحُبُّ مَنْ يحبه، والشدة مع الكافرين والقوة في الحق، ولا يتعارض هذا مع إنصافهم والتسامح معهم والرحمة بهم، والرفق واللين وخفض الجناح للمؤمنين، مع الحُنُوِّ والعطف. ولا سبيل لتحقيق ذلك إلا بالجهاد فهو سبيل العزة، ومنبع القوة. ومَنْ عَظُمَتْ محبة الله في قلبه فإنَّه يسعى إلى إرضاء الله لا يخشى في

الحق لومة أي لائم؛ فإن رضا الله غايتُه ومبتغاه، وما كان للعبد أن يبلغ هذه المنزلة الرفيعة، ولا يصل إلى هذا الفهم الصحيح والعمل الصالح إلا بفضل من الله تعالى، وفَضْلُ الله تعالى منحةٌ منه لِـمَنْ يشاء من عباده. والله واسعٌ في عطائه، عليمٌ بأحوال خلقه. وفي الآية ما لا يخفى من التعريض بأحوال المنافقين.

٥٥ ـ الناصرُ هو الله تعالى لرسوله ﷺ والمؤمنين الذين يحافظون على إقامة الصلاة في أوقاتها، وبكمال طهورها، وتمام أركانها، ويدفعون الزكاة لمستحقيها كما فرض ربُّنا، مع ملازمتهم للركوع والخضوع لله.

٥٦ ـ وَعَدَ اللهُ مَنْ تولَّاه ورسولَه وعباده المؤمنين بالنصر والتمكين، فحزب الله غالبٌ.

٥٧ ـ يأتي النداء للطائفة المؤمنة ومعه النهي والتحذيرُ من موالاة أعداء الدين المستخفِّين بشرائعه وشعائره من أهل الكتاب وغيرهم من الكفار، فليس أشدُّ على النفس من أن تسمع السخرية والاستخفاف بما تُعَظِّمُه. وإن الذي يتهاون ويَسْتَخِفُّ بشعائر الله ليس أهلاً للموالاة؛ لذا رَتَّب النهي عن موالاتهم بهذا الحال المستهجن؛ لبيان العلة في الحكم. والأمر بتقوى الله تعالى فيه زَجْرٌ عن هذه الموالاة المنكَرة التي لا تليق بمؤمن، أي: إن كنتم مؤمنين فاتقوا الله ولا تُوالُوهم.

٥٨ ـ ومن صور هذا الاستهزاء والتلاعُب، مشهد سماعهم للنداء، وهو من شعائر الإسلام، كيف يتخذونه مثاراً للسخرية ومادةً للتسلية والتندُّر، مع أن تعظيم شعائرِ الله من تعظيمه؟ فكيف بالاستخفاف بها مع وجوب تعظيمها ورَفْعِها؟ فهل يَسْتَهزئ بدين الله إلا جاهلٌ أحمقُ؟ وهل يَسْتَهين بشعائر الله مَنْ لديه مُسكة عقل؟

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ في الآية (٥٤) إخبار مستقبلي أنَّ الله ﷻ يُحَذِّر من الردَّة. فإن حصل ذلك فإنَّ الله تعالى سوف يأتي بدلهم بقوم يحبُّهم ويحبُّونه.

٢ ـ في الآية (٥٤) معجزةٌ غيبية؛ فقد ارتدَّ بعض مَنْ دخل في الإسلام

بعد وفاة الرسول ﷺ، وفيها إشارةٌ إلى ضرورة استشراف المستقبل، والتخطيط الدقيق، ومجابهة المخاطر المحتملة، ووضع الحلول.

٣ ـ ذِكْرُ سُنَّةِ الاستبدال، فمَنْ تخاذل عن نصرة الدين فسوف يستبدل الله به مَنْ يؤيد دينه، ويقوم به.

٤ ـ من صفات الجيل المنشود محبة الله تعالى لهم، ومحبتهم الصادقة له، وموالاة أولياء الله، والترفُّق بهم، ولين الجانب والتلطف، والتواضع معهم، مع القوة والحزم في التعامل مع الكافرين بما لا يتنافى مع العدلِ، ولا يتعارض مع التسامح الذي دعا إليه الإسلام.

٥ ـ هذا الجيل إنَّما يكون بفضل الله تعالى ومشيئته، فهو تعالى واسعٌ في فضله كريمٌ في عطائه وتعامله مع عباده عليم بهم، وبمَنْ يستحقُّ النصر والتمكين.

٦ ـ قَدَّم محبته تعالى على محبتهم تعظيماً للمقدَّم، ولأنَّها هي الأساس، وبمحبته تعالى أحَبُّوه، فالمحبة كلها منه.

٧ ـ تَرْكُ الجهاد من أسباب ضعف الأُمة وهَوانها، وتَسَلُّطِ أعدائها.

٨ ـ الولاء والبراء من مسائل الإيمان، وهو دليلٌ عليه وبرهان على صدقه.

٩ ـ خَصَّ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر؛ لشرفهما وأهميتهما في حياة الفرد والمجتمع، وفي صلاح الدنيا والدين.

١٠ ـ موقف كثيرٍ من أهل الكتاب الذين يَسْتَخِفُّون بدين الحقِّ بوجهٍ عام، وبشعيرة الأذان خاصة.

١١ ـ تعظيمُ ما عظَّمه الله تعالى من شعائرَ وحُرُمات، وغَيْرَةُ الله تعالى على دينه.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ
أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ
مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ
قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ
يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ
ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾

التفسير:

٥٩ ـ أمر تعالى نبيَّه بسؤال أهل الكتاب على وجه الإنكار والعتاب: لماذا تَنْقِمُون منا؟ ألأننا صَدَّقْنا بالله وبالقرآن وما سبقه، أم تنقمون لأنَّكم خرجتم عن دائرة الإيمان، وانحرفتم عن سَنن الأنبياء، وفطرة الإسلام؟

٦٠ ـ قل لهم يا محمد: هل أنبِّئكم بشَرٍّ من موقفكم هذا البعيد عن الحق، فإذا كان حالُنا شرّاً كما تظنون، فكيف بحال أسلافكم الذين لعنهم الله، وغَضِبَ عليهم ومَسَخهم؟ فما أشدَّه من عقابٍ! أن تجتمع اللعنة والغضب مع المسخ إلى أقبح الصور، وأزراها صورة القردة والخنازير؛ بتمرُّدهم وعصيانهم وعبادتهم لشياطين الجن أو الإنس. هؤلاء البعداء شرٌّ مكاناً، وأضَلُّ عن طريق الحق، فبِئْسَ ما هم عليه من شرٍّ وضلالٍ لا نظير له.

٦١ ـ تكشف الآيةُ حالةَ اليهود إذ يَدَّعون الإيمان، فإذا جاؤوا المؤمنين، تظاهروا بالإيمان، وقد دخلوا جاحدين، قد لابسهم الكفرُ، ولازمهم وصاحَبَهم، وكما دخلوا خرجوا، ولم يتغيَّرْ من حالهم شيءٌ، بما يَدُلُّ على قسوة وجمودٍ، ومكابرة وجحود. والله أعلم بما تنطوي عليه ضمائرُهم من خبايا.

٦٢ ـ وممَّا يثير العجبَ حالُ كثير منهم، إصرارٌ واستمرارٌ على المسارعة إلى العصيان والاعتداء على المحارم ومجاوزة الحدِّ، فلبئس ما كانوا عليه من أعمالٍ طالحةٍ تُزْري بمرتكبِها وتُرْدِيه مع اغتراره وعُجْبه!

٦٣ ـ فهلَّا أنكر عليهم علماؤهم هذه المنكرات من قول الإثم، وأَكْلِ

السُّحْت؟ فلبئس الصنيع ما هم عليه من الرهبنة ولُبْسِ المسوح، والتقاعس عن واجب النصح والسكوت على المنكرات، والصنعةُ تشير إلى مبالغتهم، وتَفَنُّنِهم في ارتكاب المحرمات، كأنها صارت صنعةً يباشرونها، وحِرْفَةً يمتهنونها. ولبئس تَصَنُّعُ الربَّانيين والأحبار وامتهانهم للعبادة والنسك والعلم الذي صار لهم حِرْفةً يقتاتون بها.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ ليس لدى أهل الكتاب ما يُسَوِّغ نقمتهم وعداءهم للمسلمين، إلا ما انطوت عليه قلوبهم من حسد وكراهيةٍ لهم.

٢ ـ نقمة أهل الكتاب على المؤمنين ظُلْمٌ بَيِّنٌ، ينمُّ عمَّا انطوت عليه قلوبهم من حسدٍ وضغينة.

٣ ـ التحذير من السكوت على المنكر.

٤ ـ دقة القرآن الكريم في التعبير وإنصافه في الأحكام، فإنَّه لا يُعَمِّمُ الحكم على جميع أهل الكتاب، بل يُبَيِّن أنَّ هذا حال أكثرهم.

٥ ـ دَرْسٌ لأهل العلم أن يَجِدُّوا، ويبادروا لأداء واجبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

التفسير:

٦٤ ـ افترى اليهودُ على الله، فقالوا بكلِّ جرأةٍ ووقاحة: يد الله ممسكة عن الإنفاق؛ تَعَلُّلاً وتَمَحُّلاً حين طُلِبَ منهم الإنفاق، أو شكايةً من ضيق

العيش. وهذا من سوء أدبهم مع ربهم، ونسيانهم لكريم أياديه، وقولهم مردودٌ عليهم؛ إذ البخلُ والتقتيرُ والحرصُ طبعُهم وسَجِيَّتُهم، واستحقُّوا الحرمان من رحمته، على كذبهم؛ فخزائنه تعالى ملأى، بَسَطَ جودَه، ونَشَر إحسانَه، وعَمَّ خيرُه، لكنهم عَمُوا عن ذلك، ولم تَزِدْهم دعوتُهم إلى الحقِّ إلا بُعْداً وحرماناً، بإعراضهم وكيدهم للنبي ﷺ، فازدادوا جحوداً وطغياناً، فعاقبهم الله بالفرقة والشتات، فتفرَّقوا شِيَعاً، كلُّ فرقةٍ تُعادي غيرَها، وتراشقوا التُّهم، حتى صار بأسُهم بينهم شديداً، واحتدم بينهم الخصامُ، وطال الجدلُ، واتسع الخلافُ، وامتدَّتْ نار حقدِهم؛ لتنال من الأُمم الأخرى، فأضرموا نيران الحروب والمحن. وفي ختم الآية ذَمٌّ وتنفيرٌ من فسادهم وفساد غيرهم. وفي نفي المحبة إيذان بأنَّ الله تعالى لا يرفع لهم راية، ولا يصلح لهم بالاً.

٦٥ ـ يُقبل الله تعالى على أهل الكتاب، داعياً لهم مع ما سلف منهم إلى إصلاح ما فسد ووصل ما انقطع، والتحلِّي بالإيمان؛ ليُفتحَ لهم باب التوبة والرجاء. ولو صَدَّقوا بجميع الرسل وسائر الكتب، واتقوا محارم الله، لَكَفَّر الله ذنوبهم، ولَأَدْخَلهم الجنات؛ لينعموا فيها، ولو عملوا بأحكام التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربهم من سائر الكتب التي بين أيديهم، لآمنوا بخاتم النبيين.

٦٦ ـ وَعْدٌ لهم بالخير والبركة إن هم أقاموا التوراة والإنجيل وسائر الكتب المنزلة. وخصَّ الأكل لأنَّه هو أكثر ما ينتفع به الإنسان، ويهتمُّ له، وينفق عليه. ففي تأمينه راحةٌ للبال فضلاً عن رَغَدِ العيش، وبَيَّنَ تعالى أنَّ منهم مَنْ سلك طريق القصد والاعتدال، لكن الكثير منهم ساء ما يعملون.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ في الآية (٦٤) إخبارٌ مستقبليٌّ عن حال طوائف اليهود، من أنَّهم سيَظَلُّون إلى يوم القيامة يعادي بعضهم بعضاً، وينفر بعضهم من بعض، وكلَّما تآمروا على كيد المسلمين بإثارة الفتن وإشعال الحرب رَدَّ الله كيدهم، وفَرَّق شَمْلَهم.

٢ ـ تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بذاته تعالى من صفات النقص التي افتراها اليهود.

٣ ـ بيانُ حالِ السوادِ الأعظمِ من اليهود الذين لم يقيموا للتوراة وزناً، ولم يرفعوا لها رايةً.

٤ ـ نفي محبة الله للمفسدين يدل على محبته تعالى للمصلحين في الأرض، وتأييده لهم.

٥ ـ طريق الإيمان وإقامة شرع الله يجلبُ البركاتِ والفوز بالجنات.

٦ ـ في التذييل ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ احتراسٌ، ودَفْعٌ لما قد يُتَوَهَّمُ من بقائهم كلهم على الكفر والفساد، بل منهم أهلُ القصد والصدق، الذين لا يخلو منهم زمانٌ، ولكنهم يَقِلُّون إن عَمَّ الفساد، وتَسَلَّط الطغيان، وشاع الباطل، فلا يُسْمَعُ هُتافُهم، ولا يُلتفتُ لهم مع دَوِيِّ الضلال، وهديرِ الباطل. وفيه دليلٌ على دقة القرآن في بيانه، وإنصافه في أحكامه.

٧ ـ بيانٌ لحالِ اليهودِ والنصارى، وموقفِهم من كتبِهم التي يزعمون الإيمانَ بها والدعوةَ إليها، وهم مُعْرِضُون عنها، يأخذون بطرفٍ منها، ويضربون الذِّكْرَ عمَّا يخالف أهواءهم.

٨ ـ إن إقامة التوراة والإنجيل على الوجه الأمثل أمرٌ مستحيلٌ، فقد اتسع الخَرْقُ بين الكتب المنزَّلة والكتب المُتداولة بما اعتراها من تحريف؛ ومن ثَمَّ فلا سبيل لإقامة هذه الكتب إلا بالقرآن العزيز.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ
مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ
ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ
طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ
وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ
﴿٦٩﴾ لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا
تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ
ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

التفسير:

٦٧ ـ لما كان سياق الآي في كشف خبايا أعداء الإسلام ومصارحتهم بعِلَلِهم ـ وهذا أمرٌ يحتاجُ إلى جِدٍّ وعزم في تبليغه، وصبرٍ وثبات على تَبِعَتِه ـ كان هذا الأمرُ الإلهي للنبي أن يُبَلِّغ ما أُنزل إليه، والله تعالى يعصمه من كيد الكائدين، أما الكافرون فإنَّ الله تعالى يخذلهم، ولا يُوَفِّقُهم لخير، ولقد بَلَّغَ نبيُّنا ﷺ على الوجه الأتمِّ، فالآية وإن خاطبت النبي ﷺ على وجه الخصوص فهي عامَّةٌ لكل مسلم أن يُبَلِّغَ دعوة الله تعالى، لا يَثْنِيه عن ذلك أحدٌ.

٦٨ ـ ناداهم بشعار الكتاب لبعث روح الحقِّ فيهم، فلماذا لا يلتمسون الهدى، ويُصَحِّحُون المسار، ويُجَدِّدون العهد، وهم أهل الكتاب؟ وفيها دعوةٌ ضمنيةٌ إلى الإيمان بالقرآن، فمَنْ آمن به فقد أقام التوراة والإنجيل وسائر كتب الله، أمَّا صدودهم وإعراضهم فلن يزيدهم إلا ضلالاً على ضلال، وكفراً على كفر، وفي صَدِّهم وتكذيبهم وكيدِهم للدين الحق مجاوزةٌ للحدِّ، وطغيانٌ في الأرض، ومَنْ حالُه كذلك فإنه خاسرٌ هالك، فلا تأس عليهم ـ أيها الرسول ـ فقد اختاروا الكفر وأقاموا عليه.

٦٩ ـ لما بَيَّنَ تعالى أنَّهم ليسوا على شيء ما لم يؤمنوا، بَيَّنَ طريق الإيمان وعاقبته، فالذين صَدَّقوا بالله وبرسوله، واليهود، والخارجون عن دينِ

اليهود والنصارى من عبدة الكواكب أو الملائكة، والنصارى، مَنْ صَدَّق بالله تعالى، وأقرَّ له بالوحدانية ولرسوله ﷺ بالرسالة وعمل صالحاً، فلا خوف عليهم من عذاب الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من نعيم الدنيا.

٧٠ ـ أخذ الله عليهم المواثيق العظيمة، وأرسل لهم الرسل؛ لتجديد العهد وهدايتهم، فكذَّبوا بهم، وقتلوا فريقاً منهم عدواناً وبَغْياً ونصرةً للهوى، وإسكاتاً لصوت الحق. وأيُّ جريمةٍ أشدُّ من قَتْلِ صفوة خلقِ الله، وحَمَلَةِ مشاعل النور وبشائر الخير؟ إنَّها جريمةٌ بشعةٌ لن تُمحى من ذاكرة التاريخ، بل تظلُّ شاخصة وماثلة للأذهان!

٧١ ـ ظنَّ أولئك الغادرون أنَّهم في مأمنٍ من عذاب الله وبلائه، وازدادوا جُرأةً على حرماتِ الله وانتهاكاً لحدوده، ثم تاب الله عليهم، إمهالاً لهم أو استدراجاً، ثم أعادوا الكَرَّةَ، فتمادَوا في الغَيِّ والفساد، فعَمُوا عن بصائر الحق، وصَمُّوا عن سماعه، وغفلوا عن سنن الله في الأُمم، وفُتِنُوا بسَتْرِ الله وإمهاله، واغترُّوا باستدراجه، وهو تعالى بصير بأعمالهم مطلعٌ عليها، ومجازيهم بها.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ وجوب تبليغ دعوة الله تعالى، وعصمة النبي ﷺ من كيد الأعداء وغَدْرِهم.

٢ ـ أصلُ الداء هو الإعراض عما أنزل الله، والدواء إقامة دينه وكتابه.

٣ ـ الكفر والعصيان من أسباب زوال النعم، وحُلول النِّقَم على المجتمعات والأُمم.

٤ ـ دعوة الناس جميعاً إلى الإيمان والعمل الصالح، فهو طريق الأمن والسَّعْد.

٥ ـ ما صنعه اليهود في عهد النبي ﷺ هو حلقة في سلسلة ما صنعه أسلافُهم من قبل، وهذا درسٌ لأمتنا في كلِّ عصر؛ كيما تأخذَ حَذَرَها.

٦ ـ الحرص على إرضاء الأهواء وإرواء الضغائن، بدلاً من إزالتها، يُفْضي إلى الكبائر العظام والجرائم الجسام، كما وقع من اليهود قتلةِ الأنبياء.

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾

التفسير:

٧٢ ـ بعد الحديث عن حال بني إسرائيل، ونَقْضِهم الميثاق، وقَتْلهم للأنبياء، وتكذيبهم بما جاؤوا به، يأتي الحديثُ عن ضلال النصارى في شأن المسيح عليه السلام وزعمهم أنَّه ابن الله، وأنَّ الله ثالث ثلاثة. تعالى الله عما ينسبونه إليه من الولد والشريك. وفي هذه الآيات بيانٌ صريحٌ بكفرِ مَنْ ضَلَّ في شأن المسيح، فادَّعى أنه إله أو ابن إله، فالمسيح عليه السلام بريءٌ مما ادَّعاه النصارى، فقد جاء بالتوحيد ودعا إلى الإيمان الخالص، وحَذَّر من الشِّرْك وعاقبته، وبَيَّنَ أنَّه سببٌ للحرمان من الجِنان، ودخول النار، وأنَّ المشرك لن يَجِدَ مَنْ ينصُرُه، وربط الشرك بالظلم لأنَّه أعظمه وأقبحه.

٧٣ ـ ويؤكِّدُ اللهُ تعالى كُفْرَ مَنْ قال بالتثليث، فما من إله إلا إله واحد. وإن لم ينتهوا عن هذا الكذب، فإنَّ مصيرهم إلى العذاب الأليم بهذا الاعتقاد الفاسد.

٧٤ ـ حَثٌّ على التوبة، وحَضٌّ على الاستغفار من كلِّ ذنبٍ مهما عَظُمَ، وهل هناك ذنب أعظم من الشرك! فليتوبوا إلى الله تعالى منه ويستغفروه، فإنَّه تعالى غفور لِـمَنْ تاب وأناب رحيم بعباده، ولا سبيل لمغفرة الذنوب إلا بالتوبة والاستغفار.

٧٥ ـ ثم يُبَيِّن الله تعالى القول الحقَّ في المسيح عليه السلام، وهو أنَّه بشرٌ رسول، ونسبته لمريم، لأنَّه لا أب له، ولو كان له أبٌ لَنُسِبَ إليه، وإنَّما خَلَقَه الله بلا أبٍ لحكمةٍ بالغةٍ، تدلُّ على كمال قدرته تعالى، وبديع صنعه، وعيسى عليه السلام بشرٌ رسولٌ، شأنه شأنُ مَنْ سبقه من الرسل، أرسله الله على نهجهم، وأقامه على سَنَنِهم، وأُمُّه صِدِّيقةٌ عابدةٌ، كانا يأكلان الطعام، والحاجةُ إلى الطعام والشرابِ غريزةٌ إنسانيةٌ، أما الإلهُ فهو غنيٌّ قويٌّ، ليس كمثله شيء، فكيف يَدَّعُون أنه إله أو ابن إله! فتأمَّلْ كيف يُقيمُ الله الحجة عليهم من وجوهٍ عديدةٍ، ثم هم يُصْرَفون عن الحقِّ، ويَقْلِبون الحقائق، ويُقِرُّون الأباطيل، مع جَلاء الآيات وتصريفها؟

٧٦ ـ فكيف تعبدون المسيح، وترجونه من دون الله، وتَدَّعُون أنَّ ضلالكم في المسيح يضمن لكم الخلاص، والمسيح لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً، فكيف تُرَدِّدُون هذا الكفر؟ واللهُ تعالى سميعٌ لأصواتكم، عليمٌ بأعمالِكم الظاهرةِ والباطنةِ!

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ الضلال في شأن عيسى عليه السلام، وادعاء أنه إله أو ابن إله، كفر صريح، وإثمٌ عظيم.

٢ ـ الصِّدِّيقية مرتبة من مراتب الإيمان، وهي من أعلى المراتب بعد النبوة، وهي غاية الصدق مع الله ومع النفس ومع الخلق، وأساسها العلم واليقين، وثمرتها العمل الصالح والرضا والتسليم.

٣ ـ الذي يأكل ويشرب يحتاجُ إلى الخلاء، وقد تعتريه العِلَلُ، ويفتقر إلى غيره، وليس هذا من شأن الخالق جلَّ وعلا فهو تعالى الغنيُّ، ليس كمثله شيءٌ. وهذا دليلٌ جليٌّ على بشريَّة المسيح عليه السلام، وقد ثبت في الأناجيل أن المسيح كان يأكل ويشرب.

٤ ـ قَدَّم الضرَّ؛ لأنَّ النفوس بدفعه مشتغلة أكثر من اشتغالها بجَلْب النفع.

٥ ـ باب التوبة من كل ذنب مفتوحٌ مهما عَظُم، ولقد رَغَّبَ اللهُ في

التوبة، وحَثَّ على المبادرة إليها قبل فوات الأوان. وهذا من رحمته تعالى ولُطْفِه، وترفُّقه بالعباد.

٦ ـ إثبات صفة المغفرة والرحمة والسمع والبصر لله تعالى.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ
ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ
يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ
﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن
سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ
وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾

التفسير:

٧٧ ـ ينادي الله تعالى عليهم بصفة أهل الكتاب؛ لينهاهم عن الغُلُوِّ في الدين، وهم أهل كتاب لا يزالُ يحوي ما يدعو إلى التوحيد، ونَبْذِ الشرك، وهم كذلك أمناءُ على دينهم، فكيف يُقْحِمون فيه ما ليس منه؟ لذا نَسَبَ الدِّين إليهم، ثم نهاهم عن اتباع أهواء مَنْ سبقهم في هذا الضلال، فضَلُّوا وأضَلُّوا، وضَلُّوا عن طريق الحق وسبيلِ القصدِ.

٧٨ ـ ٧٩ ـ لعن الله الكافرين من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، بسبب كفرهم وتماديهم في العصيان، واعتدائهم على الحُرُمات، وترك النهي عن أي منكرٍ، حتى عمَّت المنكرات، بل صارت مألوفةً معروفةً، وأمسى المعروفُ منكراً مستغرَباً، فلبئس ما كانوا عليه من ذميم الخصال، وسوء الفعال، فلو كان في قلوبهم تعظيمٌ لله ومحبةٌ وغَيْرَةٌ على محارمه لَما تَخَلَّوا عن واجبهم في إنكار المنكرات.

٨٠ ـ موالاة كثير منهم للكفرة من عبَّاد الأوثان وغيرهم من طوائف الكفر، فكيف سَوَّلَتْ لهم أنفسهم هذا الأمر المنكرَ حتى استجازوا لأنفسهم

مناصرةَ مَنْ يوقنون بكفرهم؟ فبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لهم ولمعادهم ما استوجب سَخَطَ الله وعذابه الأبدي، فقد سَوَّلت لهم أنفسُهم تلك الرزايا، وهَوَّنت عليهم الخطايا، فاستحقوا عذاب نيران جهنم، فهم فيها خالدون.

٨١ ـ ولو كانوا مؤمنين بالله حَقَّ الإيمان، وبالنبيِّ الذي بُعِثَ فيهم وما أُنزل إليه، ما اتخذوا أولئك الكفرةَ أولياء، فموالاةُ الكفار ليست من خصال أهل الإيمان، بل من نواقضه ومُحْبِطاته، وهي من شأن الفسقة المجاهرين بالعصيان الخارجين عن الطاعة.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ النهي عن المنكر حِفْظٌ للدين وحمايةٌ للأخلاق والآداب، وسياج للمجتمعات.

٢ ـ السكوت عن إنكار المنكر آفة عظيمة تُفْضِي إلى مفاسد كثيرة على الفرد والمجتمع، منها: انتشار المنكرات، وانحسار المعروف، وتَعاظُمُ أهلِ الشَّر، وضَعْفُ أهلِ الحق، واندراسُ العِلْم، وكثرةُ الجُهَّال، والتلبيسُ والخَلْطُ حتى يصير المنكر معروفاً والمعروف مَنكراً.

٣ ـ قال القرطبي: «وفي الآية دليل على النهي عن مجالسة المجرمين، وأَمْرٌ بتَرْكِهم وهِجْرانهم» وقال: «على أنَّ مَنِ اتخذ كافراً ولياً فليس بمؤمن إذا اعتقد اعتقاده ورضي أفعاله». (الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٥٤).

٤ ـ الإيمان عصمة ونور ومنهاج.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

التفسير:

٨٢ ـ قسماً ستسفر لك ـ أيها الرسول ـ الأيامُ، وتكشف لك الأحداث، عن شدة عداوة اليهود لك ولدعوتك. وقَدَّمَ اليهود بالذِّكْرِ لأنَّ عداوتهم أشَدُّ من غيرهم؛ ذلك أنَّ اليهود عداوتهم متوارثة بينهم؛ فهم يقفون في وجه الدعوة عناداً واستكباراً على الخلق، وحسداً من عند أنفسهم؛ وكان كفرهم كفرَ عناد وجحود، وتَنَقُّصاً بحَمَلَةِ العلم. وأما المشركون فهم عَبَدَةٌ للأوثان، وقد أسرفوا بالمعاصي والشهوات؛ وألِفُوا الكفر والضلال مدة طويلة. ولتجدنَّ ـ يا محمد ـ أقربهم مودةً للمسلمين هم الذين قالوا: إنَّا نصارى. وتعليل قربهم مودةً أنَّ منهم علماءَ بدينهم، يدينون لله تعالى بالخير والرحمة والعدل، وهم منقطعون في معابدهم للصلاة والعبادة، لا يستكبرون عن قبول الحق، وهؤلاء هم الذين قَبِلُوا دعوة الرسول ﷺ، ودخلوا في دينه.

٨٣ ـ ويَدُلُّ على قُرب مودَّتهم أنَّهم لما سمعوا القرآن يُتلى عليهم اهتزَّتْ مشاعرهم، ولانت قلوبهم، وفاضت أعينُهم بالدمع؛ ولم يكتفوا بهذا الشعور، وإنَّما أذعنوا للقرآن وآمنوا به، وعلموا أنَّه كلامُ الله المنزل على قلب رسوله محمد ﷺ، وسألوا اللهَ بتضَرُّعٍ وذُلٍّ أن يُكْرِمَهم بشرف الشهادة؛ ليكونوا من أُمةِ محمدٍ ﷺ الذين هم شهداء على الأُمم يوم القيامة.

٨٤ ـ وأكَّدوا إيمانهم بقولهم: وأيُّ شيءٍ يمنعنا من الإيمان بالله تعالى

والتصديق بما جاءنا به محمد ﷺ من الحق من ربه، ونرجو من الله أن يُدْخِلَنا الجنة مع الصالحين؟ وفي الكلام إضمار، أي: ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين، وهم المسلمون من أُمة محمد ﷺ.

٨٥ ـ فجازاهم على إيمانهم بالله تعالى، وتصديقهم بنبوة محمد ﷺ، جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ماكثين فيها أبداً لا يخرجون منها؛ وذلك جزاء إحسانهم وصنيعهم.

٨٦ ـ وأما الذين كفروا بالله وأشركوا معه غيره، وكَذَّبوا بآياته المنزلة على رسله، فأولئك المبعَدُون عن رحمته، المستحقون للخلود في النار التي تتأجج بهم من شدة حَرِّها ولهيبها.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ في الآية (٨٢) إخبار عن أمر مستقبلي في بيان شدة عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين على مَرِّ الأزمان.

٢ ـ اللام في ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لامُ القسم، والغرض منها التأكيد. وأكَّد الفعل بشيئين: لام القسم، ونون التوكيد الثقيلة، وذكر المشركين مع اليهود لمناسبة اجتماع الفريقين على عداوة المسلمين وهذه حالةٌ معروفةٌ قديماً وحديثاً.

٣ ـ تقديم عداوة اليهود للمسلمين على المشركين؛ لأنَّها أشَدُّ ضراوة، وأشنع جرماً.

٤ ـ تحالف اليهود والوثنيين على حرب المسلمين، وأكدت الآية بالقَسَم اعتناءً ببيان تحقق مضمونها.

٥ ـ ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ للتبعيض متعلقة بـ ﴿عَرَفُواْ﴾ على معنى: عرفوا بعض الحق فأبكاهم، فكيف لو عرفوه كله، وقَرَؤُوا القرآن، وأحاطوا بالسُّنَّة؟

٦ ـ شدة عداوة اليهود للمؤمنين، وصعوبة إجابتهم إلى الحق.

٧ ـ فضل إسلام الكتابي إذا أسلم، والتنكير في ﴿وَرُهْبَانًا﴾؛ لإفادة الكثرة.

٨ ـ التواضع والإقبال على العلم والعمل، والإعراض عن الشهوات، صفاتٌ محمودة أينما كانت.

٩ ـ بيان منهج القرآن في استعمال أسلوب الترغيب والترهيب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

التفسير:

٨٧ ـ يا مَنْ آمنتم بالله تعالى لا تجعلوا الحرام حلالاً، ولا الحلالَ حراماً؛ كأنْ تُحَرِّموا شيئاً من المطاعم والمشارب والملذات المباحة على أنفسكم، أو تُحِلُّوا شيئاً من المطاعم والمشارب المحرمة. إنَّكم إنْ فَعَلْتُم ذلك فإنَّكم تُضَيِّقون ما وَسَّع الله عليكم، وتُوَسِّعوا ما ضَيَّق الله عليكم؛ فلا تتجاوزوا الحدَّ، فتُحِلُّوا ما حرَّم الله، وتحرِّموا ما أحلَّ الله؛ فالله يُبْغِضُ المعتدين، وليس المرادُ من النَّهْيِ أَنْ يَلْفِظَ بلَفْظِ التَّحْرِيمِ خاصَّةً، بل أَنْ يَتْرُكَه تَشْدِيداً على نَفْسِهِ سَواءً لَفَظَ بِالتَّحْرِيمِ، أمْ لم يَلْفِظْ بِه.

٨٨ ـ وكُلُوا من الطيبات التي أَحَلَّها الله لكم؛ فهو رِزْقٌ رزقكم الله إياه، وأعطاكم حقَّ التصرف به، وما دمتم قد آمنتم بالله تعالى، فاتقوا الله باتِّباع أوامرِه، واجتناب نواهيه.

٨٩ ـ يَعْلَمُ الله بشريَّة الإنسان وضعْفَه ونَقْصَه، وقد راعى هذا الجانب في صورةِ القَسَمِ الذي يجري على اللسان بدون قصد قلبي، مثل: لا والله، والله لَأذهب...، وهو ما يُعرف باللَّغْوِ؛ فيبشركم ـ أيها المؤمنون ـ أنَّه عفا عنكم فلا يحاسبكم عليه، ولكن يحاسب على ما حلفتم به بألسنتكم، وعزمتم في

قلوبكم عزيمةً تُثْبِتُ صدق نيتكم في الحلف. وقد منع الله العقوبة وسَتَرَها بالكفارة، فإن حلف وأكَّده بنيةٍ تُثبت صدق ما حلف به ولم يفعله؛ فإنَّه يستلزم عليه إخراج كفارة، وهي إطعام عشرة مساكين من أوسط ما يُطعم به الأهل، لكل مسكين مُدٌّ، أو كسوتهم من إزارٍ ورداءٍ وقميص، أو أيِّ لباس يسترهم بحسب اختلاف البلاد والأزمنة كالطعام، أو إعتاق عبدٍ مملوك ذكراً كان أو أنثى. وهذه الأشياء الثلاثة مخيرٌ بها، فمَنْ لم يجد من ذلك شيئاً فعليه صيامُ ثلاثة أيام، وهي مُكَفِّرات لأيمانكم، فاحفظوا أيمانكم، واجتنبوا الحَلْفَ، فإن كان لا بُدَّ منه فالتزِمُوا بوفائها إن حَلَفْتُم، والتزموا بالكفارة إن لم تَفُوا به، وقد بَيَّنَ الله لكم أحكام دينكم؛ لتشكروه على رحمته وهدايته لكم. فله الفضلُ والثناءُ على بيان شرعه.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ عِظَمُ تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرمه.

٢ ـ حرمة القول على الله بغير علم.

٣ ـ شمول الرزق على الحلال والحرام في قوله: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾؛ إذ لو لم يقع الرزق على الحلال والحرام لم يكن لذِكْرِ الحلال فائدة سوى التأكيد، وهو خلاف الظاهر. واقتصر على الأكل؛ لأنَّ معظم ما حرَّمه الناس على أنفسهم هو المآكل، والأمر بالتقوى تأكيد للوصية بما أمر به، وزاده تأكيداً قولُه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾.

٤ ـ مراعاة مُتَطَلَّبات الحياة، ودواعي الفطرة السليمة السوية من إيفاء حَقِّ الروح والجسد، وهو دينٌ جاء وسطاً بين المسيحية واليهودية، فالمسيحية مُفْرِطَةٌ في الروحانية، واليهودية مُفْرِطَةٌ في المادية، فكان الإسلام وسطاً بينهما.

٥ ـ بيان تشريع أحكام كفارة حَلْفِ اليمين على اليسر والرحمة، من غير مشقة.

٦ ـ لا مؤاخذة بالأيمان التي تُحْلَفُ بلا قصد، ولا يتعلَّق بها حُكْمٌ، وهي اليمين اللغو، كما قال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾.

٧ ـ رحمة الله بعباده المؤمنين في تشريع كفارة الحَلْفِ.

٨ ـ أَكْلُ اللذائذ لا ينافي التقوى، وذلك ظاهر مِنْ قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

التفسير:

٩٠ ـ يا أيها المؤمنون، إنما الخمر وهو الشراب المُسْكِرُ الذي يذهب العقل، والميسر وهو المراهنات المالية التي تدفع من الجانبين وهو ما يعرف بالقِمار، والحجارة التي تُنْصَب للعبادة، والأزلام وهي القِداح التي يستقسم بها المشركون قبل أن يُقْدِمُوا على شيء؛ ليعرفوا أمرهم: أيُقْدِمُ أم يُحجم؟ أو يفعل الشيء أو لا يفعله، أو يسافر أو لا يسافر... إنَّ كل ما تقدَّم ذكرُه وبيانه إثمٌ من عمل الشيطان؛ فابتعدوا عنه ولا تقربوه. وتقدَّم بيان الاستقسام في الآية (٣) من هذه السورة.

٩١ ـ إنَّ خطة الشيطان في شرب الخمر واللعب بالميسر مكشوفةٌ، وهي الكيد، وإيقاع العداوة والبغضاء، والحقد والكراهية بين المسلمين، فكل هذه الآثام ثبت تأثيرها في الناس: فالخمر تُفْقِد العقل فتسبب النزوات وتثير النعرات؛ وأما الميسر فتترك في النفوس الأحقاد وتؤجج الكراهية. ومن آثارها أنَّها تَصُدُّ عن ذِكْرِ الله وعن الصلاة؛ بسبب غياب العقل وعدم إدراكه، فعليكم اجتنابَ ذلك كله.

وما ظهر من مفاسد الخمر والميسر كافٍ في انتهاء الناس عن تعاطيهما، ومن هنا يقبل الله على عباده بهذا الخطاب الذي يجمع بين العظمة والروعة،

ويحمل معنى النهي القاطع بهذا الأسلوب الحكيم، مما دفعهم إلى المبادرة للامتثال؛ ولذلك رُوي أن عمر رضي الله عنه لما سمع الآية قال: انتهينا انتهينا.

وقد اقتصرت الآيةُ على المفاسد في شُرْبِ الخمر وتعاطي الميسر، من غير بيان ما في عبادة الأنصاب والاستقسام بالأزلام من مفاسد، لأنَّ إقلاع المسلمين عنهما قد تقرر قبل هذه الآية من حين الدخول في الإسلام؛ ولأنَّهما من مآثر عقائد الشرك، وليس في النفوس من اللذَّات ما يدافع الوازع الشرعي عنهما، بخلاف الخمر والميسر، فإنَّ ما فيهما من اللذَّات التي تُزجي بالنفوس إلى تعاطيهما قد يدافع الوازع الشرعي؛ فلذلك أكَّد النَّهْيَ عنهما أشدَّ مما أكَّد النهي عن الأنصاب والأزلام. إذ كَرَّرَ الحَثَّ على الانتهاء بصيغة الاستفهام: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟ وهذا الاستفهام ذمٌّ أُريد منه الأمر، أي: انتهوا، وهو من أبلغ ما يُنهى به إيذاناً بأنَّ الأمر في الزَّجْرِ والتحذير قد بَلَغَ الغاية القُصوى.

٩٢ ـ ثم التزموا ـ أيها المؤمنون ـ بطاعة الله وطاعة رسوله؛ فهو الفوزُ والفلاح لكم، واحذروا من مخالفته وعصيانه. فإن لم تستجيبوا لذلك، وأعرضتم عن هدي ربكم، وطاعة رسوله، فإنَّما على رسولنا البلاغ الواضح البيِّن.

٩٣ ـ سبب النزول:

عن أنس رضي الله عنه قال: كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة، وكان خَمْرُهم يومئذ الفضيخ، فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي «ألا إنَّ الخمر قد حُرِّمَتْ» قال: فقال لي أبو طلحة: اخرج فأَهْرِقْها؛ فخرجت، فهرقتها، فَجَرَت في سِكَك المدينة، فقال بعض القوم: قد قتل قومٌ وهي في بطونهم؛ فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. (صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب صب الخمر في الطريق برقم ٢٣٣٢).

التفسير:

وهناك من الصحابة رضي الله عنهم مَنْ كان يشرب الخمر، ثم مات قبل نزول تحريمها، فهؤلاء ليس عليهم مؤاخذةٌ إذا كانوا قد اتقوا الله في محارمه،

وآمنوا به، وكانت لهم أعمالٌ صالحة قدَّموها بين أيديهم، ثم اتقوا الله، وراقبوه في السرِّ والعلن.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ جاء التعبير بـ ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ وهو أبلغ من التعبير بلفظ حُرِّم، لأنَّه يفيد التحريم وزيادة، وهو التنفير والإبعاد عنه بالكلية يدفع كلَّ سبب داعٍ ومُحَفِّز إليه.

٢ ـ أكَّد الله تحريم الخمر والميسر في هذه الآيات بفنون التأكيد البيانية، إذ صُدِّرت الجملة بـ ﴿إِنَّمَا﴾ وقُرنا بالأصنام والأزلام، وسُمَّيا رِجْساً من عمل الشيطان تنبيهاً على غاية قُبْحِهما، ثم قرر ذلك ببيان ما فيهما من المفاسد الدنيوية والدينية.

٣ ـ حرمة تعاطي الخمر والميسر، وحرمة تعظيم الأنصاب والاستقسام بالأزلام. وحكمة ترتيبها في الآية: أنَّه لما كانت الخمر غاية في الحمل على إتلاف المال، قرن بها ما يليها في ذلك وهو القمار، ولما كان الميسر مفسدةَ المال، قَرَنَ به مفسدة الدين وهي الأنصاب، ولما كان تعظيم الأنصاب شِرْكاً جليّاً إن عُبِدَتْ، قَرَنَ بها نوعاً من الشرك الخفي، وهو الاستقسام بالأزلام.

٤ ـ الانتهاء فوراً من تعاطي المحرمات السابقة الذكر. ووَحَّد الخبر للنص على الخمر، والإعلام بأن أخبار الثلاثة حُذِفَتْ وقُدِّرَتْ، لأنَّها أهلٌ لأن يقال في كل واحد منها على حِدَتِها كذلك، ولا يكفي عنها خبر واحد.

٥ ـ بيان علَّة تحريم شرب الخمر والميسر من إثارة العداوة والبغضاء بين الناس، والصدِّ عن ذِكْرِ الله وعن الصلاة.

٦ ـ المداومة على تقوى الله في السر والعلن حتى الموت، وكرر التقوى مع الإيمان والعمل الصالح مرة، ومع الإيمان مرة، ومع الإحسان مرة؛ ليدلَّ على «أنَّ الاتقاء الأول هو تَلَقِّي أمر الله بالقبول والتصديق والدينونة به والعمل، والاتقاء الثاني الاتقاء بالثبات على التصديق، والثالث الاتقاء بالإحسان والتقرُّب بالنوافل». (تفسير ابن جرير الطبري ٧/ ٥٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

التفسير:

٩٤ ـ مناسبة هذه الآيات أنَّ الله تعالى قال: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ ثم استثنى الخمر والميسر من ذلك، فصارا من المحرمات، ثم استثنى نوعاً آخر وهو هذا النوع من الصيد: وهو صيد الإحرام، وبَيَّنَ جزاءه، فصار مستثنى ممَّا أحلَّ الله، داخلاً فيما حَرَّمه ومنعه على المؤمنين، فينادي الله تعالى المؤمنين، ليُعْلمهم أنه سيبتليهم بالصيد حالةَ إحرامهم مع احتمال قُرْبِه منهم في متناول أيديهم، ومرمى رماحهم؛ ليعلموا أنَّ الله تعالى يعلم مَنْ يخافه ويراقبه، فحَرَّم على المسلمين صيد البر في حال إحرامهم بالحج أو العمرة؛ وكان ذلك في يوم الحديبية؛ فكان الصيدُ يَغْشاهم وهم على رِحالهم، وكان بمقدورهم صيدُه طعناً برماحهم، أو أَخْذاً بأيديهم. فمَنْ تجاوَزَ هذا الأمر بعد هذا البيان، فخالف أمره ووقع في الصيد وهو مُحْرِمٌ، فله عذابٌ موجع.

٩٥ ـ يا أهل الإيمان، لا تقتلوا الصيد إن كنتم مُحْرِمين بالحج أو بالعمرة أو بهما معاً، وإن لم تكونوا مُحْرِمين فلا تقتلوا الصيد وأنتم في منطقة الحرم؛ فالله جعل للحَرَم حدوداً لا يُصاد صيدُه، ولا تُلْتقط لقطتُه؛ تعظيماً له. فمَنْ وقع في المحظور، وقَتَلَ صيداً فعليه جزاءٌ في المِثْلية، بأن يُقَوَّم الشيء المقتول بمثيلٍ له مما يُذْبح، ويكون قريباً إلى شَكْلِهِ من الأنعام مثل البقر أو الإبل أو الغنم. والمِثْلِيَّةُ هنا مثلية الشكل يُقَوِّمها عَدْلان ينظران إلى الصيد وما يشبهه من النَّعم من صغرٍ وكبرٍ، ومما لا جنسَ له مما له جنس؛ فمَنْ

وجب عليه شيءٌ من ذلك فعليه هديٌ يسوقه إلى مكة ليُطْعِمَه فُقَراءَها، أو يشتري بقيمته طعاماً ويتصدق به، أو يصوم بدل كل نصف صاعٍ يوماً، وعَلَّلَ إيجاب الجزاء؛ ليذوق القاتل ثِقَلَ فِعْلِه، وسوء عاقبة أمره، وهَتْكَه لحرمة الإحرام، وقد عفا الله عما مضى قبل التحريم، ولكن مَنْ عاد إلى المخالفة والنهي متعمداً؛ فإنَّه سيُعاقبه على مخالفته ومعصيته، فالله عزيز قوي ينتقم ممَّنْ عصاه.

٩٦ ـ أحلَّ الله لكم ـ أيها المؤمنون ـ صيد البحر حال إحرامكم بالحج أو العمرة؛ وصيد البحر يشمل كل ما يُستخرج منه من حيوانات تعيش فيه، أو ما يقذفه البحر على ساحله ميتاً، وقد جعل الله طعام البحر متاعاً يتزوَّد منه المقيمون والمسافرون، وبعدها يؤكِّد تحريم صيد البر حال الإحرام بالحج والعمرة، واتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ فإنَّكم راجعون إلى الله يوم القيامة لا محالة.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ الدنيا دار ابتلاء واختبار، وحكمته معرفة مدى صلابة المؤمنين في التمسك بأحكام دينهم، وأصول شرعهم.

٢ ـ ابتلاء اللهِ الأُمة الإسلامية في صيد البر كابتلاء اليهود في صيد البحر، فنجحت الأُمة في ابتلائها، وفشلت اليهود فيه، والتنكير في ﴿بِشَيْءٍ﴾ للتحقير المؤذن بأنَّ ذلك من الفتن الهائلة التي تَزِلُّ فيها أقدام الراسخين. وفائدته التنبُّه على أنَّ مَنْ لم يثبت في مثل هذا، كيف يثبت عند شدائد المحن؟

٣ ـ بيان فضل الأُمة في إباحة صيد البحر وطعامه في حِلِّها وإحرامها.

٤ ـ تحريم صيد البر على المحرم بالحج أو العمرة أو بهما معاً.

٥ ـ بيان جزاء مَنْ صاد وهو مُحْرم؛ وفيه: التخفيف على الأُمة، ورَفْعُ ما كان على مَنْ قبلها من الآصار، وألحق الخطأ بالعمد، وقيَّد العَمْدَ في ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ بحسب الغالب.

٦ ـ بيان التحكيم في الصيد، إذ لا يجوز للصائد أن يُكَفِّر بنفسه؛ لأنَّ وجوه المشابهة بين الصيد والنَّعَم كثيرة فاحتاج ذلك إلى زيادة التأمل فقال: ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

٧ ـ الله ﷻ شديد ينتقم ممَّنْ يتعدَّى حدوده، ويخالِفُ أمره، ويُصِرُّ على معاصيه. وقد أتى بالاسم الأعظم لما اقتضاه المقام من الرهبة والخوف والجلال.

٨ ـ ينظر: صورة الكعبة، كما في الملحق.

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

التفسير:

٩٧ ـ يُعَظِّمُ الله تعالى الكعبة المشرفة تعظيماً للبيت الحرام الذي جعله صلاحاً ومعاشاً وأمناً وسلاماً للناس يأمنون فيه من الخوف والفزع، ويُعَظِّم جميع أشهر الحرم، وهي (ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب) إذ جعلها قياماً، أي فيها صلاح أمر الناس في الدنيا والآخرة، فيأمن الناس على أنفسهم وأموالهم ومعايشهم وتجاراتهم، وينصرفون إلى العبادة والحج وصلة القربى، وتحصيل الأقوات كفاية العام، وقد اكتسبت الحرمة بوَصْفِها أشهر الحج والعمرة، فلا يُعتدى بها على أحدٍ، كذلك حَرَّم الاعتداء على الهدي الذي يُهدى إلى الكعبة والأنعام التي توضع عليها القلائد؛ إشعاراً أنَّها مُهْداةٌ إلى الحرم، ذلك لتعلموا أنَّ الله يعلم ما في السموات وما في الأرض؛ فهو مُدَبِّرٌ لهم، لا تَخْفَى عليه خافية.

٩٨ ـ اعلموا ـ أيها الناس ـ أنَّ الله شديدُ العقاب لِـمَنْ خالف أمره وعصاه، وأنَّ الله غفور رحيم لِـمَنْ امتثل أمره وأطاعه، وهو غفور رحيم لِـمَنْ تاب وأناب. وقَدَّم العقاب على الرحمة دلالة على أنَّ جانب الرحمة أغلب؛

لأنَّ رحمته تعالى سبقت غضبه، كما صَحَّ في الحديث؛ لذا قال تعالى: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥].

٩٩ ـ إنَّ مهمة الرسول محمد ﷺ هي البلاغ للبشرية، وعليهم تنفيذ ذلك البلاغ؛ فإن امتثلوا وأطاعوه فازوا بالجنة، وإن عَصَوه وخالفوا فلهم النار. والله يعلم ما يبدونه في قلوبهم، وما يُسِرُّونه.

١٠٠ ـ قل ـ يا أيها الرسول ـ لا يستوي الخبيث والطيب: فالكافر لا يُساوي المؤمن، والجاهل لا يساوي العالم، والظلمات لا تساوي النور، والمال الحرام لا يساوي الحلال، فلا تَغْتَرَّ بكثرة الخبيث على الطيب؛ فقد يُعَجِّلُ الله للكافرين كثرة المال لحكمة هو يعلمها، فالعبرة ليست بالكثرة والقلة، وإنَّما هي بالطيب النافع ولو كان قليلاً. فاتقوا الله يا أصحاب العقول النيِّرة، وامتثِلُوا أمره، واجتنِبُوا نَهْيَه، لعلكم تفوزون في الدنيا والآخرة.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ تعظيم الكعبة والأشهر الحرم عند الله تعالى.

٢ ـ عِظَمُ حكمة الله في جَعْلِ مكان آمنٍ، وهو البيت الحرام، فأوجد له المهابة والمكانة والتعظيم في قلوب الناس.

٣ ـ ذكر الله في هذه الآية أمام العقاب وصفين من أوصاف الرحمة، وهو كونه غفوراً رحيماً، قال الرازي: «وهذا تنبيه على دقيقةٍ، وهي أنَّ ابتداء الخلق والإيجاد كان لأجل الرحمة، والظاهر أنَّ الخَتْمَ لا يكون إلا على الرحمة». (تفسير الرازي: ١٢/١٠٢).

٤ ـ يستنبط من الآية (٩٨) الوقف النبوي عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾. ينظر: تفسير سورة النساء آية (١٧٣)، وسورة الأنعام آية (٦٥). (ح)

٥ ـ تنبيه على لزوم الطيِّب في المعتقد والعمل، وخُصَّ أولو الألباب بالذكر؛ لأنَّهم المتقدمون في مَيْزِ هذه الأمور، والذي لا ينبغي لهم إهمالها مع ألبابهم وإدراكهم.

٦ـ تقوى الله فلاح للمؤمن في الدنيا، وفوز بالجنة في الآخرة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

١٠١ ـ سبب النزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ خُطبةً ما سمعت مثلها قط، وقال فيها: «**لو تعلمون ما أعلم لَضحكتم قليلاً، ولَبكيتم كثيراً**»، قال: فغَطَّى أصحابُ رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنينٌ؛ فقال رجلٌ: من أبي؟ قال: فلان؛ فنزلت هذه الآية ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ﴾.

(صحيح البخاري، باب الرجاء، برقم ٤٣٤٥).

التفسير:

هذا تأديبٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين ونهيٌ لهم أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها، ولا حاجة لهم بها؛ لأنَّها ـ إن أظهرت لهم تلك الأمور ـ ربما ساءتهم، وشَقَّ عليهم سماعها؛ فإذا نزل القرآن وهو يحمل الإجابة كان بها، وإن لم تأت الإجابة فلا يقولَنَّ أحدٌ: ليس عنده جواب.

١٠٢ ـ وقد سأل قوم من قبلكم كاليهود والنصارى بأن يُنَزِّل لهم آية؛ فتوَعَّدهم الله إن لم يؤمنوا بها سيهلكهم، فلما أعطوها وفُرضت عليهم كفروا بها.

١٠٣ ـ أبطل الله تعالى ما كان عليه أهل الجاهلية من تحريم ما أحلَّ الله كَذِباً وافتراءً عليه، مثل شق أذن الناقة علامةً أنها مُحَرَّمة فلا يتعرض لها

أَحَدٌ؛ فلا يُشْرَبُ لبنها، ولا يرُكَبُ ظهرُها، ولا يُجَزُّ صوفُها، ويُسَمُّونها البَحيرة، وهي الناقة التي وَلَدَتْ عدداً من البطون، أو يُسَيَّب البعير بنذر يَنْذُره الرجلُ إن سَلَّمه الله من مرضٍ أو بَلَّغه منزلةً أن يفعل ذلك، وهي السائبة فتترك للأصنام، والوصيلة، وهي التي تتصل ولادتها بأنثى بعد أنثى، والحامي، وهو الذَّكَرُ من الإبل إذا وُلِدَ من صُلْبه عدد من الإبل، وقد نسب الكفار ذلك لله تعالى؛ فردَّ الله عليهم بأنه ما سَمَّى الله ولا شرَعَ ذلك حكماً ولا تعبداً؛ بل نسبوه كذباً وافتراءً عليه، وكثير منهم لا يُعملون عقولهم.

١٠٤ ـ وإذا دُعِيَ هؤلاء المشركون إلى ما أنزل الله وما شرع الرسول، رَدُّوا ذلك بوقاحة أنه: يكفينا ما أخذناه من آبائنا من قول وعمل؛ كيف يقولون ذلك وآباؤهم لا يعقلون ولا يعرفون الحق، ولا يميزون بينه وبين الباطل، ولا يهتدون إلى الحق سبيلاً؟

١٠٥ ـ لما ذكر الله مكابرة المشركين عن سماع الحق عَذَر المسلمين بقيامهم بما فرض الله عليهم من دعوة الناس إلى الخير؛ فعلى الداعي تبليغ الناس ودعوتهم إلى الدين الصحيح بالحُجَج والبراهين؛ فإذا لم يستجيبوا فليس عليه شيءٌ، فالهداية من الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

يطلب الله من عباده المؤمنين أن يسلكوا منهج القرآن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يسلكوا سُبُلَ المخالفين الذين يتبعون آباءهم وأسلافَهم من غير هَدْيٍ ولا بصيرة، فالزَموا ـ أيها المؤمنون ـ بعضكم بالنصح، ولا يَضُرُّكم ضلالُ المشركين، وإعراض الكافرين والمخالفين.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ توازن بين التزام الأوامر والنواهي والوفاء بعهد الله، وبين عدم التشديد على النفس فيما لم يأمر به الله تعالى.

٢ ـ نَهْيُ المؤمنين عن الأسئلة المحرجة المتنطِّعة من غير حاجة.

٣ ـ تحريم الابتداع في الدين. وهذه الآية تدعو إلى التوازن، فإذا كان الله تعالى قد أمَرَنا بالوفاء بالعقود، فلا ينبغي أن يُوصلنا ذلك في التضييق على أنفسنا.

٤ ـ النهي عن التقليد الأعمى، ولاسيما تقليد الجهال الذين لا عِلْمَ عندهم.

٥ ـ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يقتصر ذلك على رجال الحسبة، بل يجب على كل مسلم. عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنَّه قال: أيها الناس، إنَّكم تقرؤون هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾، وإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يَعُمَّهم الله بعقاب منه**».

(سنن أبي داود ـ كتاب الملاحم ـ باب الأمر والنهي ـ برقم ٤٣٣٨، وصححه الألباني، صحيح سنن أبي داود، برقم ٣٦٤٤).

٦ ـ لا يَضُرُّ المؤمنين إعراضُ الناس عن هدي الله، إذا أمروهم بالمعروف، ونَهَوْهم عن المنكر.

٧ ـ غلبةُ أهل الإسلام، وإن قَلُّوا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٧ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾

١٠٦ ـ سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان تميمٌ الداريُّ وعَدِيُّ بنُ بدَّاء رجلين نصرانيين، يَتَّجران إلى مكة في الجاهلية ويطيلان الإقامة بها، فلما هاجر النَّبي ﷺ حَوَّلا متجرهما إلى المدينة، فخرج بديل السهمي مولى عمرو بن العاص تاجراً حتى قدم المدينة، فخرجوا جميعاً تجاراً إلى الشام، حتى إذا

كانوا ببعض الطريق اشتكى بديل، فكتب وصية بيده، ثم دَسَّها في متاعه وأوصى إليهما، فلما مات فتحا متاعه، فأخذا منه شيئاً ـ إناءً من فضة منقوشاً بالذهب ـ ثم حجراه كما كان، وقدما المدينة على أهله، فدفعا متاعه، ففتح أهله متاعه، فوجدوا كتابه وعهده وما خرج به، وفقدوا شيئاً فسألوهما عنه، فقالوا: هذا الذي قبضنا له ودفع إلينا. فقالوا لهما: هذا كتابه بيده، قالوا: ما كتمنا له شيئاً، فترافعوا إلى النبيِّ ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾.. إلى قوله: ﴿إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾.

فأمر رسول الله ﷺ أن يستحلفوهما في دُبُر صلاة العصر: بالله الذي لا إله إلا هو، ما قبضنا غير هذا ولا كَتَمْنا، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم ظهر معهما إناء من فضة منقوش مموَّه بالذهب، فقال أهله: هذا من متاعه؟ قالا: نعم، ولكنا اشتريناه منه، ونَسِينا أن نذكره حين حلفنا، فكرهنا أن نُكَذِّب نفوسنا، فترافعوا إلى النبيِّ ﷺ فنزلت الآية: ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ فأمر النبيُّ ﷺ رجلين من أهل البيت أن يحلفا على ما كتما وغَيَّبا، ويستحقانه».

(صحيح البخاري، كتاب الوصايا، برقم ٢٧٨٠).

التفسير:

يُرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى ما يُسْعِدُهم في حياتهم الدنيوية، ولاسيما في أمر الوصية حين حضور الأجل؛ فإنْ كنتم على سفرٍ، وأحسَّ الواحدُ منكم بدُنُوِّ أجله، فليُشْهِد اثنين من أهل الدين والاستقامة ويوصيهما؛ فإنْ لم يجد اثنين أمِينين من المسلمين؛ فليُشْهد اثنين من غير المسلمين عند الحاجة على الوصية. فإن شككتم في صِدْقهما وشهادتهما فقِفُوهما من بعد صلاة المسلمين ـ وليكن بعد صلاة العصر ـ فيقسمان بالله إنَّهما لم يأخذا عوضاً دنيوياً على شهادتهما، ولم يُحابيا بذلك قرابةً أو رَحِماً، وإنَّهما لم يكتما شيئاً من الشهادة.

١٠٧ ـ فإن اتُّفِق الاطلاع على أنَّ الشهيدين المُقْسِمَين استحقا إثماً بالكذب أو الكتمان في الشهادة، أو بالخيانة وكتمان شيءٍ من التركة في حالة ائتمانهما عليها؛ فليَقُمْ رجلان آخران مقامهما من أولياء الميت الوارثين. وهذان الرجلان الوارثان ينبغي أن يكونا هما الأَوْلَيَيْنِ بالميت، أي: الأقربين إليه الأحقين بإرثه

إن لم يمنع من ذلك مانع، فيقسمان بالله: على أن ما يشهدان به من خيانة الشهيدين اللذين شهدا على وصية ميِّتهما أحقُّ وأصدق من شهادتهما بما كانا شَهِدَا به، وأنَّهما ما اعتديا عليهما بتهمة باطلة، ولم يتجاوزا الحق، فإن اعتدينا على الحق وقلنا الباطل فإنَّنا من الظالمين.

١٠٨ ـ إنَّ ذلك الذي ذُكِرَ من تكليف المؤتمن على الوصية والقيام على مشهد من الناس بعد الصلاة، وإقسامه تلك الأيمانَ المغلظة أقرب الوسائل إلى أن يؤدِّي الشهداءُ الشهادةَ على وجهها بلا تغيير ولا تبديل، تعظيماً لله ورهبةً من عذابه، ورغبةً في ثوابه، أو خوفاً من الفضيحة التي تَعْقُبُ استحقاقهما الإثم في الشهادة، برَدِّ أيمانٍ إلى الورثة بعد أيمانهم تكون مبطلة لها، فمَنْ لم يمنعه خوفُ الله وتعظيمُه أن يكذب أو يخون لضعف دينه، فإنَّ خوفَ الفضيحة على أعين الناس يمنعه. واتقوا الله ـ أيها المؤمنون ـ في الشهادة والأمانة وفي كل شيء، واسمعوا سَمْعَ إجابةٍ وقَبول هذه الأحكامَ، وسائر ما شرعه الله تعالى لكم، فإن لم تتقوا وتسمعوا كنتم فاسقين عن أمر الله تعالى مَحْرُومين من هدايته، مستحقين لعقابه.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ مشروعية الوصية قبل الموت، والحثُّ عليها في الحضر والسفر.

٢ ـ وجوب الإشهاد على الوصية.

٣ ـ إباحة سفر المسلم مع الكافر، إذا لم يكن ثمة محذور.

٤ ـ جواز استشهاد غير المسلمين في حقوق المسلمين في حال فقدان المسلم.

٥ ـ تحليف الشاهد على أنَّه صادق في شهادته، وتخصيص الحَلْف في الآية باثنين من أقرب الورثة؛ لخصوص الواقعة التي نزلت لها.

٦ ـ مشروعية اختيار الوقت الذي يؤثِّر في نفوس الشهود الذين حَلَفُوا الأيمان؛ رجاءَ أن يَصْدُقوا في كلامهم، فقد جُعِلت بعد الصلاة، وكونها عقب الصلاة للتغليظ والتهويل.

٧ ـ إرشاد إلى حبس مَنْ تَوَجَّبَ عليه الحقُّ حتى يؤدِّيه.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ
قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ
ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ
مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ
بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟
بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

التفسير:

١٠٩ ـ لما تمَّ الكلام على الاستشهاد على وصايا المخلوقين، ناسب الانتقال إلى شهادة الرسل على وصايا الخالق تعالى؛ فإنَّ الأديان وصايا الله إلى خلقه.

واذكروا ـ أيها الناس ـ يوم القيامة عندما يجمع الله الرسل، فيسألهم وهو أعلم بهم عن جواب أُممهم لهم؛ ويُقْصَدُ من السؤال توبيخُ أُممهم، وإقامة الحجة على الكافرين منهم؛ فيقول: ماذا أجابتكم الأُمم عن أمر التوحيد، وعبادة الله وحده؟ أكانت إجابة إيمان وإقرار، أم إجابة كفرٍ واستكبارٍ؟ فتتبرأ الرسل من العلم بالسؤال، وتُفَوِّضه إلى الله تعالى. فيقولون للرب: لا عِلْمَ لنا إلا علمٌ أنت عَلَّمتنا إياه، ونحن لا نعلم ماذا أَحْدَثَتِ الأُمم بعدنا، أنت سبحانك عظيم العلم بكل غيب.

١١٠ ـ واذكر حين قال الله تعالى لنبيه عيسى ابن مريم عليه السلام واذكر نعمتي العظيمة عليك وعلى والدتك؛ إذ أَيَّدْتُك وقَوَّيْتُك بروح القدس جبريل عليه السلام، وقد خَلَقْتُك من غير أبٍ، واصطفيتُ والدتك على العالمين؛ فبرَّأتها مما نُسِبَ إليها، وعَلَّمْتُك الكتابة، فتكلم الناس وأنت صغيرٌ في مهدك تُكَلِّمهم بأمور الدعوة في حال كهولتك. ووهبتُك الحكمة، وهي العلم الصحيح الذي يبعث الإرادة إلى العمل النافع بما فيه من الإقناع والعبرة والبصيرة وفقه

الأحكام، وعَلَّمْتُك التوراة التي أنزلتُها على موسى، والإنجيلَ الذي أنزلتُه عليك ليكون هدايةً للناس؛ ففيه ما أوحيتُه إليك من الحكم والأحكام، والبشارة بخاتم الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وإذ تَصْنَعُ من الطين مثلَ هيئة الطير؛ فتنفخ فيها، فيكون الطينُ المصنوع على هيئة الطير طيراً حقيقياً بإذني، وكنتَ تَشفي الأعمى فيصير مُبصراً، وتَشفي الأبرص، فيعود جِلْدُه سليماً بإذن الله، وكنت تدعو الله أن يُحْيي الموتى، فيقومون من قبورهم أحياءً بإذن الله؛ وإذ تُخرج الموتى من قبورهم أحياء، وقد سمَّى الله الإحياء خروجاً في قوله: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]، وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧]. واذكر نعمتي عليك حين منعتُ بني إسرائيل من قَتْلِك وصَلْبِك، وقد أرادوا ذلك وقت تكذيب كفارهم إياك، وزَعْمهم أن ما جئت به من البينات لم يكن إلا سحراً ظاهراً.

١١١ ـ ومن نِعَمي عليك ـ يا عيسى ـ أن ألهمتُ أصحابَك وخُلَصاءَك أن يؤمنوا بك وبرسالتك، وقد كَذَّبك جمهورُ بني إسرائيل؛ فجعلتُهم أنصارك يؤيدون حجتك، وينشرون دعوتك بعدك؛ فقالوا: آمنا بك يا ربنا، وصَدَّقْنا عيسى، وأنَّه رسولك إلينا، ونشهد أنَّنا خاضعون لجلالك وسلطانك.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ كرر كلمة ﴿بِإِذْنِى﴾ تأكيداً؛ لكون ذلك واقعاً بقدرة الله تعالى وتخليقه، لا بقدرة عيسى وإيجاده.

٢ ـ لكلِّ عصر ما يناسبه من المعجزة، فازدهر عصر عيسى عليه السلام بالطِّبِّ والعلوم، فأجرى الله على يديه ما يفوق الطِّب البشري والعلوم والثقافة البشرية المعهودة، وازدهر عصر موسى عليه السلام بالسِّحر والشَّعوذة، فأيَّده الله تعالى بما يفوق سحر السحرة، باليد والعصا، وفَلْقِ البحر، وتفجير الماء من الحجر ينابيع، هي اثنتا عشرة عيناً بعدد الأسباط (قبائل بني إسرائيل). وازدهر عصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم بسحر البيان في الكلام شعراً ونثراً وخطابةً، فأنزل الله عليه القرآن الكريم، وفيه أعلى البيان وأسمى الفصاحة والبلاغة، فكان إعجاز القرآن البياني معجزة النبي صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة.

٣ ـ جواز نسبة الإنسان إلى أُمِّه إذا لم يكن له أب؛ لقوله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾.

٤ ـ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجب عليهم الشكر، كما يجب على مَنْ أُرْسِلُوا إليهم؛ لأنَّ الله أَمَرَ عيسى أن يذكر نعمته عليه وعلى أُمِّه.

٥ ـ اللقب الفاضل لجبريل هو روح القدس؛ فإنَّ القدس بمعنى الطهارة، والنزاهة من كل عيب.

٦ ـ هذه الآية العظيمة التي أعطاها الله لعيسى، وهو أنَّه يُكَلِّمُ الناس في المهد وكَهْلاً على السواء.

﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ
قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن
قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ
إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾

التفسير:

١١٢ ـ واذكر حين طلب أنصار عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام أن يُنزل الله تعالى عليهم مائدة من السماء؟ فأجابهم عيسى بأن يتقوا الله إن كانوا مؤمنين حقَّ الإيمان، والمقصود بكلمة الاستطاعة مع أنَّ الطلب صادر من الحواريين، وهم مؤمنون يعلمون أنَّ الله قادر على كلِّ شيء، أي: هل يفعل ذلك، وهل يجيبك إلى مطلبك أو لا؟ فأرادوا علم المعاينة والمشاهدة والاطمئنان بعد توافر الاعتقاد والعلم بقدرة الله تعالى، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ لأنَّ عِلْمَ النَّظر والخبر قد تدخله الشُّبهة والاعتراضات، وعلم المعاينة المحسوس لا يدخله شيء من ذلك، ولذلك قال الحواريون: ﴿وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ كما قال إبراهيم: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾.

(انظر: تفسير القرطبي ٦/ ٣٦٥، وتفسير الرازي: ١٢/ ١٢٩).

١١٣ ـ قال أنصاره المؤمنون: إننا نريد أن نأكل منها؛ فتطمئن قلوبنا برؤيتها، ونؤمن بها؛ لتتحقَّقَ المشاهدة واللمس والذَّوق والشمُّ، ونعلم علماً يقينياً صِدْقَ نُبُوَّتك، وصِدْق ما وَعَدْتنا من ثمرات الإيمان، ونكون من الشاهدين على هذه الآية عند بني إسرائيل؛ فيؤمن المستعد للإيمان، ويزداد الذين آمنوا إيماناً.

١١٤ ـ فوافق نبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام طَلَبَ الحواريين؛ فدعا الله عز وجل قائلاً: اللهم ربَّنا أنزل علينا مائدة تكون مناسبة لعيدٍ، يفرح بها الأولون والآخرون، وتكون آيةً على وحدانيتك وعلى صدق نبوتي، وأني مرسل من عندك إلى بني إسرائيل، وأنت خير الرازقين.

١١٥ ـ استجاب الله طَلَبَ عيسى ابن مريم عليه السلام؛ فقال: إني منزلٌ عليكم مائدة الطعام، ولكن مَنْ كَذَّبَ وجَحَدَ وحدانية الله، وأنكر نبوة عيسى ابن مريم بعد نزولها؛ فإني أُعَذِّبه عذاباً شديداً لا أعذبه أَحَداً من العالمين، وقد نزلت المائدة عليهم؛ فآمن مَنْ آمن، وكفر مَنْ كفر.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ وجوبُ التأدُّب مع الله جل جلاله، والتحذير من سوء الأدب معه، أو يُقترح عليه شيءٌ.

٢ ـ فَرْقٌ بين طَلَبِ الحواريين وطَلَبِ عيسى ابن مريم؛ فالحواريون قدَّموا بشريَّتهم، فطلبوا من المائدة أولاً الأكل والطعام؛ فقالوا: نريد أن نأكل منها، وتطمئنَّ قلوبنا، أما عيسى ابن مريم فقد أخَّر الطعام عن القيم المعنوية؛ فقال: اللهمَّ ربَّنا أنزِلْ علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا، وآية منك، وارزقنا وأنت خير الرازقين، وأَتَى عيسى بكلمة الرزق عند دعاء ربه، وهي عامةٌ تشمل كلَّ أنواع الرزق؛ لتشمل الطعام والشراب والملبس والعلم والحلم.

٣ ـ مشروعية الأعياد الدينية لعبادة الله بالصلاة والذِّكْر؛ شكراً لله تعالى.

٤ ـ مكانة الأنبياء والمرسلين عند ربهم، واستجابة دعائهم.

٥ ـ تقوى الله وقاية من الوقوع في المحذور، والنزوع من أسلوب الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ولم يقل: (فقلت اتقوا الله)

تحذيراً للمسلمين من أن نكون مثلَ مَنْ مضى في اقتراحهم الذي كان سبب هلاكهم.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ
سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ
أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ
وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ
﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ
ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ
ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾

التفسير:

١١٦ ـ ١١٧ ـ واذكر يوم القيامة حين يقول الله لنبيِّه عيسى: أأنت قلت للناس: اتخذوني وأُمي إلهين من دوني؟ عندئذٍ يجيب عيسى مُنَزِّهاً الله ومُتَأدِّباً؛ إجلالاً وهيبة لذلك المقام: ما ينبغي لي أن أقول للناس ما ليس لي بعلم؛ إن كنتُ قلتُ هذا فقد عَلِمْتَه، تعلم ما في نفسي، ولا أعلم ما في نفسك، فأنت عظيم العلم بكل غيب. ما قلتُ لهم يا ربي إلا ما أمرتني به أن أُبَلِّغَه للناس من توحيد الله وعبادته، وكنت شاهداً على أفعالهم وأقوالهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ ـ والمراد منه وفاة الرفع إلى السماء، أي: رَفَعْتني إليك ـ كنت أنت الرقيب على أعمالهم، وأنت يا ربِّ رقيب حفيظ.

١١٨ ـ إنَّك ـ يا الله ـ إن تُعَذِّبْ مَنْ مات منهم على الشرك؛ فأنت على ذلك قدير، وإن تغفر لِـمَنْ مات منهم على التوحيد، فتُدْخِلْه جناتك؛ فإنَّك أنت العزيز الغالب على أمره الحكيم الذي يضع كلَّ شيء في موضعه.

١١٩ ـ أجاب الله تعالى عيسى ابن مريم عليه السلام: هذا اليوم يوم الجزاء ينفع المؤمنين الذي آمنوا بالله، فأَخْلَصوا له العبادة، وانقادوا لشرعه؛ فلهم جناتٌ

تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، لا يخرجون منها أبداً. ذلك الفوز العظيم.

١٢٠ ـ الله وحده مالك السموات والأرض وما فيهنَّ، يفعل فيها ما يشاء، لا ينازعه في ملكه أحد، وهو سبحانه على كل شيء قدير.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ توبيخ النصارى يوم القيامة أمام الناس جميعاً على تأليه عيسى ابن مريم وأُمِّه عليهما السلام.

٢ ـ أدبُ عيسى عليه السلام يوم القيامة حين سؤاله، ورَدُّ عِلْمِ ذلك إلى الله عز وجل، فمن الأَولى أن يتأدب الخلق مع خالقهم، فهم أقل رتبةً ومنزلة من رتبة الأنبياء والمرسلين.

٣ ـ ثراء أسلوب الاستفهام في دلالة المعنى وبيان مقاصده، وليس الاستفهام في الآية على حقيقته بمعنى أن السائل لا يستفهم عن شيء لا يعلمه، ولكن يريد منه أن يلفت المسؤول إلى شيء يريده، وقد فَهِمَ عيسى عليه السلام السؤال على الوَجْه الذي ينبغي أن يُفْهَم به، وهو أنَّه واردٌ على سبيل استنطاقه بما يعلمه الله، ويَعْلمه هو، من ادِّعاء النصارى هذا الكَذِبَ على عيسى تكذيباً لهم وتبكيتاً، ورَدّاً على افترائهم هذا في حقِّ الله، وفي حقِّ عيسى عليه السلام تَبْرِئَةً له، وإقامة للحُجَّة عليهم؛ ولذا أجاب مُسْنِداً عِلْمَ ما في الضمير والعلم المطلق لله، نافياً ذلك عن نفسه؛ تنبيهاً للسامعين أنَّ سؤال ربِّه إيَّاه ليس طَلَبَ علْم، بل هو استنطاق له بما يَعْلَمُه الله، فالاستفهام إذاً للتقرير بما يعرفه عيسى عليه السلام.

٤ ـ الأنبياء والرسل والأولياء والصالحون لا يَدْعُون أَحَداً لعبادتهم.

٥ ـ براءة عيسى عليه السلام ممَّا نسبه قومه إليه.

٦ ـ هولُ يوم القيامة وشدَّتُه على الناس جميعاً.